



كلية العلوم  
الإنسانية والاجتماعية  
FACULTY OF HUMANITIES  
AND SOCIAL SCIENCES

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
People's Democratic Republic of Algeria  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
Ministry of Higher Education and Scientific Research  
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة  
University Mohamed Boudiaf of M'sila



1985  
جامعة محمد بوضياف - المسيلة  
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

كلية: العلوم الانسانية والاجتماعية  
قسم: الفلسفة  
رقم التسجيل:.....2024.

عنوان الموضوع:

## الميتافيزيقا عند رنيه ديكارت

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إشراف:

أ.د/ حميدي لخضر

إعداد الطالبة:

- ميهوبي نجود

السنة الجامعية: 2024/2023



# شكر

الحمد لله حمدا كثيرا مباركا فيه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه المد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله الف حمد والف شكر لله اولا واخرا ان وفقنا لإتمام هذا العمل

نتقدم بخالص شكرنا للأستاذ المشرف "**حميدي لخضر**"، الذي رافقنا في هذا العمل، راجين من المولى عز وجل ان يوفقه لما يحب ويرضى.

شكرا لكل الاساتذة الذين ساهموا في نجاح مذكرتنا، لكل من دعا لنا في ظهر الغيب، شكرا لكل من سعى في تعليمنا حرف ينفعنا.

شكرا للوالدين العزيزين، شكرا لكل الوجوه والاسماء التي عرفناها من اصدقاء وزملاء وزميلات.

الى جميع من نساهم القلم ولم ينساهم القلب.



## إهداء

قال تعالى: (قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بعطائك

ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك

ولا تطيب الجنة إلا برؤيتهما إلى من كللهما الله بالهبة والوقار... إلى من علماني العطاء بدون انتظار... أرجو من الله أن يرحمكما ويتقبلكما من الشهداء وستبقى كلماتكما نجوم أهتدي بها اليوم وفي الغد وللأبد

والديا العزيزين رحمهما الله

إلى معنى الحب ومعنى الحنان والتفاني... إلى بسمة الحياة وسر الوجود

زوجي وأولادي حفظهم الله

إلى منارة العلم والعلماء

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

إلى الذين حملوا أقدس رسالة في الحياة إلى الذين مهدوا لنا طريق العلم والمعرفة

أساتذتنا الأفاضل.

## ملخص:

قطع ديكارت الطريق أمام الميتافيزيقا الكلاسيكية الموروثة عن الفلسفة اليونانية والميراث المسيحي وتجاوزها وأسس ميتافيزيقا جديدة، تتطرق لتفكير إلى الوجود فانقل من الشك إلى اليقين فعن طريق التأمل الميتافيزيقي أثبت وجود الأنا من حيث هو جوهر مفكر، وبذلك جعل الكوجيتو شرط للوصول إلى المعرفة اليقينية، فعرف ديكارت الميتافيزيقا على أنها أساس كل البحوث والمعارف حيث هي العلم الذي يبحث في أسس المعرفة والأشياء بهدف الوصول إلى المبادئ الأولى والعلل القصوى.

تعرضت أوروبا في عصره إلى أزمة حضارة، فدعي ديكارت إلى الخروج من التقليد الأعمى إلى الانتقاد التام لرجال الكنيسة والفكر الكلاسيكي القديم، وإعلان ثورة على الفكر القديم والسعي وراء طلب العلم اليقيني، وتزامنا مع الثورة العلمية لكوبرنيك وغاليلي وكبلر في مجال علم الفلك والفيزياء تبدلت نظرة الانسان لنفسه ووجوده وعلاقته بالعالم المحيط به.

فمنهج الشك عند ديكارت جمع في الواقع بين البعد الرياضي التحليلي وبين البعد الميتافيزيقي التركيبي، ذلك أنه لكي ندرك اليقين في مجال الميتافيزيقا فإننا نخضع موضوع البحث لطرق شتى ونتأمله من زوايا متعددة، ومنهج الشك هذا كان يعبر عن الدقة والضبط اللذان يتميز بهما العقل الانساني عموما، فطريقته التحليلية الرياضية سمحت بطرح القضايا طرحا تسلسليا وترتيبيا وفق نمط يتلاءم وطبيعة المنهج الذي يتبعه، والكوجيتو "أنا أفكر، إذا أنا موجود" هو إعادة طرح جديد لطبيعة العلاقة بين الفكر والوجود.

سميت الميتافيزيقا عند ديكارت بالميتافيزيقا الذاتية، حيث أنه بعد صراع عسير خاضه مع الشك توصل إلى تساؤل هام هو ما الذات؟ لكن الشك الديكارتي لم يكن عشوائيا بل شكا منهجيا قاده إلى الشك في كل الآراء السابقة والمعتقدات السائدة التي تلقاها في مدرسة اللاهوت لا فلاش.

فالشك في الفكر الكلاسيكي والفكر المسيحي قاده إلى تأسيس الشك المذهبي، فالأنا الذي يشك هو الأنا المفكر والواعي، فالوعي بذلك محركه الشك، والأنا الفكر لا يفكر إلا بوعي بالوجود، كذات تعي ذاتها ووجودها.

وبعد تأسيسه للقاعدة الرئيسية "أنا أفكر، إذا أنا موجود" ربط الفكر بالوجود ربطاً متيناً للدلالة على أهمية الطرفين معاً، حيث لا معنى لأحدهما في غياب الآخر، فالذات هي جوهر تتحدد فيه كل عمليات الإدراك والاختيار لمصطلح الفكر، والشك حال من أحوال الفكر. فأحدث ديكارت قطيعة معرفية مع التراث الأرسطي وذلك بمستويين، أولاً على المستوى المنهجي حيث نقد المنطق الأرسطي وإظهار مجال الحكم فيه ومن أن بنيته لم تعد تسير معطيات العصر الحديث الذي هو عصر الاكتشافات العلمية في شتى المجالات.

وثانياً على المستوى الفلسفي حيث نقد الفلسفة الأرسطية من خلال نقده للفلسفة اللاهوتية الوسطية وخاصة الفلسفة القديس توما الاكويني وذلك بتحرير قدرات العقل الإبداعية وجعله المبدأ الأول والأساس في هذا الوجود، فالعقل مستحوذ على المعرفة في شكل أفكار فطرية وهو وسيلتي إلى إدراك حقيقة وجودي ومن هنا خلص ديكارت إلى الكوجيتو الذي قلب الكثير من المفاهيم التي بنيت عليها الفلسفة.

فميتافزيقا الذاتية عند ديكارت، خاصيتها الجوهرية هي التفكير وإيماناً منه بوجود أفكار فطرية أودعها الله في الانسان بصفة قبلية، وجود فكرة الكمال كفكرة فطرية تحيل إلى وجود الكامل وهو الله، موجود ضرورة باعتباره علة وجود هذا الانسان كموجود ناقص، ما يؤكد أن معرفة الذات عند ديكارت تتزامن ومعرفة الله عن طريق الحدس العقلي فإن كان منطلقه من الأفكار القطرية التي تعد الضامن لوجود الله، يصبح بذلك الله هو الضامن لوجود هذه الأفكار الفطرية.

# مقدمة



## مقدمة:

تعتبر مشكلة الميتافيزيقا من المسائل الهامة في الفلسفة والتي أحدثت حولها جدلا كبيرا بين الفلاسفة على مر العصور، وترجع أهميتها إلى ذلك التساؤل الذي تفرضه وهو عن ماهيتها. حيث اختلفت الاجابات على حسب مستوى التفكير الفلسفي وكل حقبة من تاريخ الفكر.

ولأهمية الموضوع كان يجب تتبع مسار المسائل الميتافيزيقية التي استقطبت الاهتمام والانتباه منذ بدايات التفكير الانساني، وإن تعددت موارد هذه المسائل ومشاربها عبر صيرورتها التاريخية والقضايا الكبرى التي أفرزتها بدءا من اللحظة اليونانية مع بوادرها الأولى وتأثرهما بأصل الوجود، ومبدأ تشكله وقوانينه المتحكمة فيه كموضوع رئيسي لها.

وتلت المرحلة اليونانية المرحلة الوسيطة التي شكلت منعطفها هاما في تاريخ الفلسفة، فعنت بتعقل الايمان حيث شهدت سيطرة رجال الكنيسة الذين جعلوا من الدين ذريعة لتقييد الفكر البشري، فنتجت عن ذلك ظهور ثورة فكرية بدأت بانبثاق نور فكر جديد وهو الفكر الحديث ومع ديكارت بالتحديد، حيث امتزجت تلك التصورات اليونانية والمسيحية للوجود في إطار معرفي الذي كان بدوره المجال الذي أحاط بتفكير ديكارت وقد لعب هذا الاخير دورا عظيما في مجال الفلسفة العقلية التي كانت تسعى لتحقيق البداهة واليقين في الفكر، فانتهج طريقا أساسه الشك المنهجي لبلوغ اليقين واتخذ مبدأ "أنا أفكر إذا أنا موجود" كأساسا لجميع أفكاره، ومنها مسألة الميتافيزيقا، إذا كان ديكارت قد جعل الكوجيتو المبدأ اليقيني الأول، فالإشكال الرئيسي هو كيف أسس للميتافيزيقا الجديدة؟ و كإشكاليات فرعية: ما هو الشك المنهجي الذي أقام عليه فكره؟ وما العلاقة بين الفكر والوجود لديه؟ وما مفهوم الميتافيزيقا عنده؟

وللإجابة على هذه التساؤلات قمنا بهذا البحث الذي أردنا به الوصول إلى مفهوم دقيق للميتافيزيقا عند ديكارت، حيث بدأنا بحثنا بمقدمة يليها ثلاثة فصول.



ففي بداية الفصل الأول حاولنا ضبط مفهوم الميتافيزيقا لغويا وإصطلاحيا، وبعد ذلك قمنا بتتبع وتقصي السيرورة التاريخية لمسألة الميتافيزيقا، بدءا بالمرحلة الايلية ثم اليونانية وختاما بالوسيطية وهذا لإبراز التباين الفكري والفلسفي السابق لديكارت والفلسفة الحديثة.

وفي الفصل الثاني قمنا بعرض نشأة ديكارت وحياته وأعماله والظروف التي أحيطت به، فكما يقول هيجل: الفيلسوف ابن عصره، ثم أشرنا إلى المنهج الجديد عنده وانعكاساته على الفكر الفلسفي، فانتقال ديكارت من الشك إلى اليقين أمر مهم جدا في تناولنا لمشكلة الميتافيزيقا عنده، خصوصا أن الشك الديكارتي كان ممهدا إلى الكوجيتو الذي تحدد على أساسه الفكر الديكارتي في جميع جوانبه، وهنا تكمن فكرة تجاوزه للفكر القديم فجعل من الفكر دليل على الوجود.

أما في الفصل الأخير فتناولنا مفهوم الميتافيزيقا عند ديكارت وخلصنا إلى ثلاثة مستويات للميتافيزيقا عنده، حيث تدرج إثبات وجود الحقائق التي تقوم عليها الميتافيزيقا، فبدأ بإثبات وجود النفس ثم أثبت وجود الله وأخصرا أثبت وجود العالم.

#### ■ منهج الدراسة:

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة فهو المنهج التحليلي، الذي يهدف إلى تحليل مفهوم الميتافيزيقا عبر سياقها التاريخي وتحديد مفهومها المتغير من مرحلة لأخرى وصولا إلى مرحلة الحدأة وبالتحديد عند رنيه وديكارت.

#### ■ دوافع الدراسة:

توزعت دوافع إختيارنا للموضوع بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي.



أما الدوافع الذاتية، فتمثلت في الميل الشخصي للبحث والتقصي لمعرفة تعريف الميتافيزيقا كمصطلح فلسفي مبهم، وكمفهوم شغل الفكر عبر العصور إلى يومنا هذا، وتساؤل حير ذهن كل دارس للفلسفة.


أما الدوافع الموضوعية فهي تعود إلى أهمية موضوع الميتافيزيقا في الفكر الفلسفي، حيث تعددت الكتابات والبحوث والنظريات والآراء حولها، وعبر كل بقاع العالم وجميع العصور وجميع الديانات وبالخصوص في الفلسفة الحديثة حيث كانت سببا في ظهور ثورة فكرية أدت إلى تحول كبير في العالم الذي نهج طريق جديد للتفكير وبداية للثورات التحريرية للفكر الإنساني.

#### ■ أهمية الدراسة:

تكمن أهمية البحث من خلال أنه محاولة للإجابة عن تساؤلات حيرت الباحثين، وهذا عن طريق تحديد دقيق للمفهوم، وتتبع لآراء الفلاسفة عبر التاريخ والتركيز على مفهوم الميتافيزيقا الذاتية التي أتى بها رنيه وديكارت، حيث كانت نقطة تحول هامة في تاريخ الفلسفة، وكيف انطلق إلى التجاوز وصولا إلى التجديد، والتأسيس لفلسفة جديدة ومنهج جديد.

#### ■ صعوبات الدراسة:

- عدم امتلاك الوقت الكافي للبحث العلمي.
- عدم امتلاك الطرق والأساليب التي تساعد على إعداد البحث بالشكل الأمثل.
- عدم التمكن من اللغة الانجليزية نظرا لوجود وتوفر العديد من المراجع باللغة الانجليزية.
- انتشار العيد من الابحاث العلمية ولكن غير دقيقة.
- الفجوة في التواصل بين الاوساط العلمية وغير العلمية.



# الفصل الأول: السياق الفلسفي للميتافيزيقا

1. مفهوم الميتافيزيقا
2. المحطات الكبرى لمفهوم الميتافيزيقا.

مصطلح ميتافيزيقي عميق بعمق التاريخ، فلا يفتح أمامنا بمجرد الاستئناس بالقواميس الفلسفية، فمفهومه يجوز على حمولة معرفية كبيرة، متغيرة ومتجددة عبر محطات التاريخ البشري، وهذا يحثنا على الوقوف على معنى المصطلح ودلالة المفهوم، وتتبع سياقه الفلسفي عبر التاريخ.

## 1. مفهوم الميتافيزيقا:

أ. **التعريف اللغوي:** إن كلمة ميتافيزيقا (F) Métaphysiqu (E) Métaphysics هو تعريف للكلمة اليونانية (تاماتافوسيكيا) ومعناه ما بعد الطبيعة.

ويرجع أصل هذه التسمية إلى ترتيب كتب أرسطو لما نشره "أندرونيقوس الرودسي" (في القرن الأول قبل الميلاد)، فكتاب "ما بعد الطبيعة" يلي كتاب "الطبيعة" ترتيباً. أما في المعجم الفلسفي لإبراهيم مذكور فيذكر الميتافيزيقا في جانبين:

- إسم كتاب لأرسطو يجيء ترتيبه بعد كتاب الطبيعة، وقد أطلق عليه هذا الإسم مشائى من رجال القرن الأخير قبل الميلاد وهو "أندرونيقوس الرودسي" الذي جمع كتب أرسطو.
- أحد أقسام الفلسفة وقد اختلف مدلوله باختلاف العصور تبعاً لقصره على مشكلة الوجود أو المعرفة.<sup>1</sup>

ويذكر الدكتور الجزائري محمود يعقوبي في "معجم الفلسفة" الميتافيزيقا باسمها، ويعرفها لغة أنها كلمة مركبة من (ميتا) بمعنى ما بعد، ومن (فيزيقا) بمعنى الطبيعة، وأشار بها شراح أرسطو إلى جزء من آثاره وجدوه مرتباً بعد الفيزياء، ويبدو أن أول استعمال لعبارة "ما بعد الطبيعة" باللسان العربي في كلمة واحدة للإشارة إلى فرع من الحكمة إنما كان من الفرابي.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> إبراهيم مذكور: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، دط، ص197  
<sup>2</sup> محمود يعقوبي: معجم الفلسفة، أهم المصطلحات وأشهر الأعلام، دالر الميزان، الجزائر، ط2، 1998، ص156.

ب. **التعريف الاصطلاحي:** إن معرفة المفهوم الاصطلاحي للميتافيزيقا يتطلب تتبع معناها عبر التطور التاريخي.

- نجدها عند أرسطو Adristite (322-384 ق.م) تعني "الفلسفة الأولى أو علم الإلهيات"<sup>1</sup>
- أما عند الاسكندر الأفروديسي Andronicus (204-285 ق.م) فقد فسرها تفسيراً يجعل موضوع الكتاب "البحث في الوجود بما هو موجود" وأصبح يطلق إسم الميتافيزيقا على البحث في الأمور التي تتجاوز ما بعد الطبيعة.<sup>2</sup>

وقد توصل الدارسون إلى تقديم مفهوم مضبوط يجعل من الميتافيزيقا "هي العلم بمبادئ الوجود وطبيعته من حيث هو موجود، وبمبادئ المعرفة وطبيعتها من حيث هي معرفة".

والبحث في الوجود العام أو في المبادئ العامة التي تجعل الوجود موجوداً أصبح يدل كذلك على البحث العيني فيما وراء الوجود عن موجود بعينه، هو واهب الموجودات وخالقها وهو الله. وهذا المفهوم الديني للميتافيزيقا ظهر مع العصر الوسيط وخاصة عند الفلاسفة المسلمين مثل "الكندي" الذي عرف الميتافيزيقا أو الفلسفة الأولى "بأنها علم الحق الأول الذي هو عله كل حق"<sup>3</sup>، وأطلق عليه ابن سينا والفرابي اسم العلم الإلهي، ثم أصبح لهذا العلم معاني كثيرة منها أن تكون الميتافيزيقا هي العلم بموجودات لا تدرك بواسطة الحواس مثل: الله، النفس، الجوهر المطلق.

ولقد سبق الذكر أن المعنى الديني للميتافيزيقا ظهر في العصور الوسطى، أي عند الفلاسفة المسيحيين أيضاً، فحاولوا ربط الفلسفة بالدين مثل القديس "أوغسطين" و"توما الاكويني".

<sup>1</sup> عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984، ص493.

<sup>2</sup> المرجع السابق، عبد الرحمن بدوي، ص493،<sup>2</sup>

<sup>3</sup> الكندي: رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، ص30.

وعليه نستنتج من خلال كل هذه التعريفات أن الميتافيزيقا هي كل ما يتعلق بحقائق الأمور ومبادئها وعللها القصوى متجاوزة بذلك كل المظاهر الحسية، وبهذا نكون قد أحطنا بمفهوم الميتافيزيقا من خلال تطور مدلولها من فلسفة إلى أخرى.

## 2. المحطات الكبرى لمفهوم الميتافيزيقا:

### أ. المحطة الإيلية: بارميندس والبحث عن الحقيقة:

يجمع الباحثون في مجال الفلسفة اليونانية "أن اللحظة البارمنيدية" التي تنتمي إلى الفضاء الفكري الإيلي، تشكل المنعطف الأكثر أصالة في التفكير الفلسفي الغربي: فإذا كان طاليس قد أدخل المنهج الطبيعي إلى بلاد اليونان مستبعدا بذلك المنهج الأسطوري واتبعه فيثاغورس بإحلاله المنهج الرياضي، فإن بارميندس قد أسس الميتافيزيقا والمنطق من وراءها.<sup>1</sup>

أما من وجهة نظر الباحث إمام عبد الفتاح إمام يرى أنها علامة على انبثاق المرحلة الميتافيزيقية، وإن بداية الميتافيزيقا تنسب إلى بارميندس الذي ازدهر حوالي 475 ق.م، وهذا راجع للظروف التي أحاطت بحياته الفكرية، فهو: أب الفلسفة وسيظل وجها فلسفيا شهيرا لكونه أول من صاغ مشكلة الوجود. كما يعتبر أول من صاغ أفكاره الفلسفية شعرا أي أنه اتخذ الشعر أداة للتعبير عن فلسفته.<sup>2</sup>

فالبحث عن المبدأ الأول المنظم للكون وللوجود يعتبر في حد ذاته ثورة فكرية جريئة، سواء أكان هذا المبدأ في المادة (طاليس) أم في الهواء (أنكسمنس) أم في النار (هرقليطس) أم في اللاوجود (أنكسيمندروس). وهذه الثورة هي التي جعلت الفكر العلمي مبني على التعليل ممكنا<sup>3</sup>. ويرى بارميندس أنه يجب الابتعاد عن "الآراء البشرية" الفانية، دون تجاهلها معرفيا، حيث يقول:

<sup>1</sup> محمد جديدي: الفلسفة الإغريقية، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار الغربية للعلوم، بيروت، ط1، 2009، ص177.

<sup>2</sup> المرجع السابق، محمد جديدي، ص177.

<sup>3</sup> فتحي تريكي: فلسفة التنوع، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 2009، ص26-27.



"يجب أن لا نولي لهذه الآراء أية مصداقية حقيقية، غير أنه يجب أن نلم بها لكي تعرف الحكم الذي يجب أن تكونه"<sup>1</sup> أما الطريق الحقيقية حسبه فهو طريق الوجود الذي يتميز بأنه: "موجود وأنه لا يمكن أن يكون موجودا، أنه لطريق اليقين، لأنه يوافق الحقيقة، الطريق الآخر: هو ليس الوجود موجود، واللاموجود هو بالضرورة موجود. إن هذا الطريق هو درب ضيق لا يمكننا أن نتعلم عليه شيئا، ذلك أنه ليس بإمكاننا أن ندرك اللاوجود بالفكر، لأنه خارج متناولنا، كما لا يمكننا أن نعبر عنه بالعبارات، في الواقع إن الفكر والوجود هما نفس الشيء.<sup>2</sup>

إذا فالفلسفة اليونانية تحدثت عن الوجود بصورة مطلقة، حيث أن جعلت الفكر والوجود نفس الشيء واللغة هي الأداة الرابطة التي تربط الفكر بالموضوعية، وهذا ما يراه بارميندس مجرد ظن يحول بين رغبة الانسان في الوصول إلى الحقيقة.

ولهذا يعتبر بارميندس أول من صاغ مشكلة الوجود صياغة جوهرية، إذ أن قصيدته عن الطبيعة ترفض وضع الحقيقة في حركية العناصر المادية، فالحقيقة موجودة واقعا في الواحد لا في الكثرة والتغير.<sup>3</sup>

إن الأصل الأنطولوجي عند بارميندس يبدأ من الوجود الذي يتماهى مع التفكير، أي أن التفكير يتفاعل مع ما هو موجود وحاضر أمامنا، بإمكاننا أن نتمثله وننقذه ونتجاوزه. أما ما هو غير موجود فهو خارج مجال التفكير، وغير معنى برؤيتنا وبتمثلاتنا، ومنه كان الوجود هو المطلق المنتهي، نعرفه عن طريق اللغة، نجتهد في إدراكه بفضل العقل. نبتعد عن الكثرة الزائفة لكي نصل إلى الواحد الثابت.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> هانز جورج غادمير: بداية الفلسفة، ترجمة علي حاكم صالح، حسن ناظم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط2، 2013، ص196.

<sup>2</sup> المرجع السابق، هانز جورج غادمير، ص197.

<sup>3</sup> المرجع السابق: فتحي تويكي، ص29

<sup>4</sup> ربوح البشير: مقاربة تاريخية، بأفق مفاهيمي لمسألة الميتافيزيقا، العدد الرابع، جانفي 2017، ص43.

يعتبر بارمنيدس هو أول من اكتشف الميتافيزيقا، ذلك الفرع أو المبحث الذي يستحل بدءا من أرسطو مركز الخطاب الفلسفي.<sup>1</sup>

فاستند أفلاطون في بناءه الفكري على الجانب المثالي في فكر بارمنيدس أما أرسطو فسعى إلى التوفيق بين الشطرين المتناقضين عند بارمنيدس. وبهذا فقد فتح بارمنيدس مجالا واسعا في البحث الفلسفي الابستمولوجي، الذي شغل تفكير الفلاسفة بعده، بحثا منهم عن كيفية تجاوز المعرفة الظنية والانتقال إلى المعرفة اليقينية.

ب. المحطة الأفلاطونية: ميتافيزيقا المثل.

أرسطوقليس المكنى بأفلاطون (Platon) (427-347 ق.م) من أبرز الفلاسفة اليونانيين، فتعتبر فلسفته أول فلسفة مكتملة (...). يفرض نفسه إذ أن فلسفته هي الأولى التي فتحت كافة المجالات الكبرى للتجربة الإنسانية، مع ربطها بمبادئ أساسية تصلح لكل.<sup>2</sup>

لقد تأثر أفلاطون بأستاذه سقراط، حيث سار على خطاه خاصة فيما يتعلق بموقفه اتجاه الحركة السوفسطائية في مجال الابستمولوجيا والأخلاق، هذه الأخيرة التي تعني بدراسة السلوك الإنساني، ويرجع أصل التسمية كما ورد في المعجم الفلسفي على أن أصل هذا اللفظ في اليونانية (سوفيسما Sophisma) وهو مشتق من لفظ (سوفوس Sophos) ومعناه الحكيم الحاذق، والسفسطة عند الفلاسفة هي الحكمة المموهة (...). وقيل أيضا: أن السفسطة قياس ظاهره الحق وباطنه الباطل، ويقصد به خداع الآخرين أو خداع النفس (...).<sup>3</sup>

فسقراط هو أول من تحدى السوفسطائيين، فأرسى دعائم البحث في مجال الأخلاق والمعرفة، فرأى أن حقائق المعرفة والقيم حقائق ثابتة ومطلقة عكس ما ادعاه السفسطائيين بنسبتها وتغيرها

<sup>1</sup> المرجع السابق: محمد حديدي، ص184

<sup>2</sup> لوك فيري: أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، ت، محمود بن جماعة، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، مصر، تونس، ط:2015، ص92.

<sup>3</sup> جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، مكتبة المدرسة بيروت، لبنان، دط، 1982، ص658.



بحسب الأحوال والظروف. لأن حسبه هذه الادعاءات باطلة يراد بها تمويه الحقائق وتزييفها وابعادها عن الموضوعية والثبات.

ورغم التأثير الكبير لأفلاطون بأستاذه أرسطو إلا أن فلسفته ابتعدت بأشواط عن أستاذه خاصة في الجانب الميتافيزيقي وما يتعلق بنظريته حول الوجود والمعرفة.

كان التلميذ الأقرب إلى سقراط، السدة التي فرغت بموت المعلم (...). بيد أن أفلاطون سار بفلسفته شوطاً أبعد من الشوط الذي مشاه سقراط (...).<sup>1</sup>

يمكن أن تعتبر فلسفة أفلاطون نوعاً من المذهب المثالي الخارجي من ناحية أنه ينظر إلى المعنى، مثال الذي هو العنصر العقلي على أنه جوهر الأشياء (...).، غير أن نظريته في المعرفة ممتزجة بنظريته في ما بعد الطبيعة إلى حد يصعب معه تمييزها (...).<sup>2</sup>، ما يؤكد على أن الابستيمولوجيا عند أفلاطون ليست بمنأى عن أنطولوجيته، حيث تقوم فلسفة أفلاطون على التمييز بين الحقيقة والظاهر.

فأفلاطون هو أَل فيلسوف جعل تقسيماً ثنائياً للوجود عالم الحس أو المحسوسات وموضع المثل، وهذا ما ميز ميتافيزيقا أفلاطون وما يميزها من لغة تؤكد وجود فضائين متميزين من حيث مواصفاتها، فالمثل عنده هي الحقيقة مثال الخير، الذي يرمز إلى الشمس باعتبارها مؤسس الرمزية قوامه الثبات، المطلقة وعالم المحسوسات يمكن تلخيصه أيضاً في كلمة واحدة وهي الاختلاف المفضي إلى التعدد، التغير، النسبة... (...). لا تعد الموجودات الحتمية كونها خيالات

<sup>1</sup> جورج حنا: قصة الانسان، دار العلم، للملايين، بيروت، ط2، 1997، ص38-39.

<sup>2</sup> أرفولدكوليه : المدخل إلى الفلسفة، ت: أبو العلا عفيفي، علم الكتب للترجمة والنشر بيروت، لبنان، ط1، 2016، ص288.

أو انعكاسات لها (...) أنا العالم الحق هو عالم المثل، الخارج على حدود الزمان والمكان، وليس عالم الحسيات الواقع في نطاقهما (...).<sup>1</sup>

نظرية المثل هي الفكرة الرئيسية في فلسفة أفلاطون التي تعتبر مرجعية أساسية لفلسفته المرتبطة بالوجود، النفس، الأخلاق، السياسة، الفن...، فالوجود قائم في العالم المثالي لأنه أكثر كمالاً، خلوداً وأبدية، ويتصف بالثبات، وعالم المثل يعد نموذجاً لكل نوع من أنواع الموجودات في عالم الظاهر. (...) عندما صنع الصانع العالم فأى النماذج كانت في رؤيته؟ هل كان لديه النموذج اللامتغير أو ذلك النموذج المبدع إذا كان العالم جميلاً حقاً والصانع خيراً، فذلك واضح إذ يجب أنه اهتم بالمثال المصنوع (...) النموذج الأزلي (...)<sup>2</sup>، ومنه فالنموذج أو البراديجم (Paradigma) موجود في عالم المعقولات في مقابل عالم المحسوسات، فهو عالم الحقيقة والكمال يتصف بالثبات والخلود والأبدية، وإذا كانت حقيقة الأشياء ليست كما تبدو لكل فرد منا، وأنها ليست نسبية تختلف من فرد لآخر، فإنه ينبغي أن تكون للأشياء الموجودة ماهيات ثابتة (...)<sup>3</sup> فيعتبر أفلاطون الخير الأسمى أو المطلق وجوداً سام وله الأولوية الوجودية والمنطقية بمقابل الموجودات الأدنى منه، فهو المبدأ الذي تستمد منه الصور الأخرى وجودها باعتباره مثال المثل، فمثال الخير المطلق يعتبر أسمى مثال.

استخدم أفلاطون المنهج الجدلي لتوضيح رؤيته الفلسفية والمتمثل في الجدلين الصاعد والنازل، اللذان يرتبطان بالبعد الالبيستيمولوجي، لا القائم على الصراع بين المتناقضات، فالجدل الصاعد

<sup>1</sup> ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية (من طاليس (585 ق.م) إلى أفلاطون (270م) وبرقس (485م)، منشورات: دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1991، ص81.

<sup>2</sup> أفلاطون: المحاورات الكاملة، ت، شوقي داوود تمراز، محاورات طيماسوس، المجلد الخامس، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1994، ص412-413.

<sup>3</sup> أفلاطون: محاورات كراتيلوس، ت، عزمي طه السيد أحمد، منشورات وزارة الثقافة، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، 1995، ط1، ص37.

يتضح من خلال أن الفيلسوف الحكيم يلاحظ الجزئيات ثم يرتفع من خلال الكثرة الحسية إلى الوحدة العقلية التي تشملها وتفسرها، ومن هذه الوحدة العقلية إلى معقولات أعلى منها رتبة.<sup>1</sup>

أي ينتقل الفكر أو الذهن من الجزئي إلى الكلي، أي الانتقال من المدركات الحسية إلى المعاني الكلية ويرتقي بها إلى التعقل الخالص إلى العلة الأولى أو الخير الأسمى: الذي يقوم في العالم المعقول مقام الشمس في العالم المحسوس<sup>2</sup>

حسب أفلاطون للوصول للحقيقة التي في عالم المثل ما على النفس إلا استذكار ما نسيه، فالمعرفة عنده تذكر والجهل نسيان، فعالم المحسوسات سجن يجب التحرر منه بممارسة التأمل النظري الصرف، عن طريق الديالكتيك الصاعد للوصول إلى المعرفة اليقينية المتسمة بطابع التجريد القائم في الرياضيات كعلم منحه أفلاطون مكانة مميزة وخاصة ولأن (...). فكرة التجريد كانت شيئاً جديداً على العقل اليوناني الذي لم يكن قي اعتاد الرأي القائل أن أساس معرفة الأشياء لا يمكن في مظاهرها الحسية أو أشكالها المتغيرة وإنما ينحصر في مجموعة من النسب والعلاقات والأفكار المجردة التي يدركها العقل لا الحواس (...).<sup>3</sup>

العملية العكسية للجدل الصاعد هي الجدل النازل، بعد أن بلغ الفيلسوف إلى الحكمة والخير الأسمى وجب عليه العودة عكسا، ومتى بلغ هذه المرتبة من الحكمة بان لزاما عليه العودة العالم السفلي (...).<sup>4</sup>، ولذا يؤكد أفلاطون أن المسلك الوحيد لبلوغ الحقيقة هو السير خطوة خطوة، بحيث تستوعب كل خطوة قبل الانتقال إلى التالية، وكذلك اقناعه بأن منهج السؤال والجواب هو المنهج الطبيعي لبلوغها.

1 إمام عبد الفتاح إمام: مدخل إلى الميتافيزيقا، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص102.

2 المرجع السابق: إمام عبد الفتاح إمام، ص102.

3 فواد زكريا : جمهورية أفلاطون، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، دط، 2004، ص147،

4 ماجد فخري : تاريخ الفلسف اليونانية، من طاليس(585 ق.م) إلى أفلاطون (270 ق.م) وبرقس (485م) منشورات: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص84.



اعتمد سقراط على المنهج التوليدي لبلوغ المعرفة الحقة، فاتبعه أفلاطون، فكان منهجه المنهج الحواري (الديالكتيكي)، المبني على التعقل ويتصف بالثبات والموضوعية، وبهذا شهدت الفلسفة اليونانية معه بروز العقل عوض التفكير الأسطوري كطريق للمعرفة وتفسير الوجود من حوله، فقد استطاعت الفلسفة التوصل إلى تحديد مهامها وصياغة مفاهيمها الخاصة بعد أن أفلحت في الامساك بتلابيت الأسطورة، ومع ذلك فإن فلاسفة الإغريق الذين تصدوا لإقامة نظم فلسفية عقلانية على أشلاء الأسطورة، لم ينجوا تماما من سحر البيان الأسطوري.<sup>1</sup>

ج. المحطة الأرسطية:

بعد مرورنا بالمحطة الأفلاطونية، لا نستطيع تجاهل المحطة الأرسطية التي كان لها تأثير كبير في تاريخ الفلسفة.

فرغم التأثير الكبير لأرسطو بأستاذه أفلاطون إلا أنه رفض نظرية المثل الأفلاطونية التي حسبته كانت تفسر الوجود تفسيراً ابستمولوجياً وأنطولوجياً حيث "يبدو جلياً أن أرسطو لم يكن مقنعاً بالأساطير والمثل"<sup>2</sup>، مستبعداً بذلك الرياضيات فأفلاطون رياضي بينما أرسطو اهتم بالطبيعة الحية ووجودها أكثر من الرياضيات ف "ما هو مهم هنا هو الطبيعة الحية ووجودها أكثر منه البنى الرياضية"<sup>3</sup>، ولهذا يجب الوقوف على العلل التي صنعت هذا الوجود الطبيعي، فرأى أنه "من الغريب أن نسأل كيف يمكن للوجود بمعنى الماهية أن يكون كثيراً، وليس كيف يكون الكيف والكم كثيراً"<sup>4</sup>، فالشيء الموجود عند أرسطو لا بد أن يكون مخلوقاً من مادة ذات شكل وكم ونوع، والمادة تسبق اللامادة لأن الكم والنوع لا يمكن تحديدهما إلا بالمادة.

<sup>1</sup> فراس السواح : الأسطورة والمعنى دراسات في الميتولوجيا والديانات الشرقية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ط2، 2001، ص22.

<sup>2</sup> هانز جورج غادامير: بداية الفلسفة، ترجمة علي حاكم صالح، حسن ناظم، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط2، 2013، ص:115.

<sup>3</sup> هانز جورج غادامير: م.ن، ص:114،

<sup>4</sup> أرسطو: الكتاب الرابع عشر، مقالة النو، ضمن كتاب إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الميتافيزيقا، ص:591.



عرفت نظرية أرسطو في الميتافيزيقا بإسم "الفلسفة الأولى" التي تناولت طبيعة الوجود ودراسته كما هو في حد ذاته، فلقط ميتافيزيقا أطلق على كتب أرسطو كتصنيف لها في طرف تلميذه "أندرونيقوس دي رودس" أطلقها على كتب أرسطو في القرن الأول قبل الميلاد بعد قيامه بتصنيفات لكتبه تصنيفا مدرسيا إلى ثلاثة أجناس: المنطقيات والطبيعات والأخلاقيات، وكان أن

طرح الاشكال: أين تصنف الكتابات التي تدخل في أي مبحث في هذه المباحث؟<sup>1</sup>

هذا الاشكال المطروح أفضى إلى إدراجها من قبل تلميذه "أندرونيقوس" وتصنيفها إلى مبحث الطبيعة، بل إرتأى أن تصنف إلى جانب (وراء) و(بعد)، هي دلالة البادئة Meta الطبيعة فهي الكتب التي تلت كتب الطبيعة من حيث التصنيف، فأصل لفظة ميتافيزيقا هو عبارة ثلاثية الألفاظ Meta ta phusica إن لم تكن رباعيتها: ta meta ta phusica. إلا أنها خضعت لعملية نحت جعلت منها لفظة موحدة وواحدة متمثلة في "metaphysica" وإن كان أرسطو نفسه يجهل ما أطلق على مصنفه الجامع والشامل لأعماله المتعلقة بموضوعات ما بعد الطبيعة، المنضوي تحته "أربعة عشر كتاب مسماة بأسماء الأحرف اليونانية".<sup>2</sup>

فتسمية ميتافيزيقا أرسطو جاءت مصادفة، فما ما بعد الطبيعة لا تحمل أي إشارة إلى مضمون هذه البحوث، بل هي ما بعد طبيعة أرسطو فحسب، وهكذا جاءت التسمية عرضا أو مصادفة لكنها مع تكور المصطلح أصبحت وصفا للموضوعات التي يدرسها هذا العلم<sup>3</sup>، فموضوعاتها تبحث في العلل الأولى للأشياء، فاعتبارها الفلسفة الأولى، فحسب أرسطو أن "موضوعها النهائي هو العلة الأولى أو المبدأ الأول، هو أشرف الموضوعات وهو الله (...)<sup>4</sup> وهو المحرك الذي لا يتحرك كما أورده أرسطو في كتابه الطبيعة يقول: "ولما كان المتحرك إنما يتحرك

1 محمد الشيخ: بناء المفاهيم وإعادة بنائها - مفهوم الميتافيزيقا نموذجا- مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد2، أكتوبر، ديسمبر، 2012، ص:17.

2 المجلة نفسها: ص:19.

3 إمام عبد الفتاح إمام: مدخل إلى الميتافيزيقا، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص: 18.

4 المرجع السابق: ص19، 18.

عن شيء فواجب ضرورة أن يكون كل متحرك أيضا في مكان فإنما يتحرك عن غيره، والمحرك أيضا يتحرك عن شيء آخر، لأنه هو أيضا متحرك، والآخر بدوره متحرك، والآخر بدوره متحرك آخر. إلا أن ذلك ليس يمر بلا نهاية، بل لا بد من أن يقف عن شيء ما هو أولا سبب الحركة".<sup>1</sup> فعلم الإلهيات كما أسماه أرسطو يبحث في الوجود الأول أو العلة الأولى، وهو فكرة الإله

وصفاته وأفعاله، فحسبه هو المحرك الذي لا يتحرك بعد المبدأ

الأول للوجود علة كل حركة، يتصف بالكمال، وهو ليس علة فاعلة في الوجود بل علة غائبة. فيرى أرسطو أنه من الملائم تسمية هذه الدراسة باسم "الفلسفة الأولى" ومبادئه الأكثر كونية هي الجواهر لاسيما الله ودراسة الله هي "اللاهوت". وكل هذا يطابق ما نعنيه باسم "الحكمة" التي تهدف إلى تحصيل أشد المعارف الكونية<sup>2</sup>، فالطريق إلى معرفة الله وتحصيل الحكمة هو موضوع الميتافيزيقا الأساسي وهو الجوهر. أي البحث في الوجود المطلق والحقيقة المطلقة، وعليه يمكن القول أن، الميتافيزيقا مصطلح لم يستخدم قط من قبل المؤلفين اليونان، وهي لفظة مرخمة ومقلصة من<sup>3</sup> Métaphusika

فالتساؤل عن: ما هو الوجود؟ شغل الفكر اليوناني إلى أرسطو حتى أنه ذكر هذا الأخير في كتابه "ما بعد الطبيعة" أسماء الفلاسفة الذين سبقوه إلى الخوض في قضية الوجود: طاليس، وأنكسيمس، وديوجنس، وهيباسوس من أهل متابونتوس، وهيراقليطس، وإمبادوقليس، وإنكساغوراس، من أهل كلازومناي، وليوكيبوس، وديمقريطس، والفيثاغوريين، وإفلاطون نفسه، ممن طرحوا السؤال عن الوجود. بل ويمكن حتى أن نقول إن هسيودوس أيضا قد تابع هذه

المسألة.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> أرسطو: الطبيعة، ج2، ترجمة: إسحاق بن حنين، تج: عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، ص: 735.

<sup>2</sup> محمد الشيخ: بناء المفاهيم وإعادة بنائها، مجلة سابقة، ص: 20.

<sup>3</sup> Ivan gobry Le Vocabulaire de la philosophie de... collection dirigée par jeanpierre zarader , ellipses, paris, 200 ; p86

<sup>4</sup> حول هسيودوس راجع: ما بعد 4، 1، 984 ألف، 31-23

فقرر أرسطو أن إثارة السؤال عن الوجود هو ثمرة حيرة وتيه الإنسان وتوقعه إلى أداء واجبه الإنساني. يقول لنا في الفصل الأول من كتاب "ما بعد الطبيعة" إن سائر الحيوانات تعيش بتصوراتها وذكرياتها ولا تتمتع بالتجربة (امبيريا) المتواصلة قليلا، أما الجنس البشري فيعيش الفن (تخنه) والاستدلالات (لوغيسموس) أيضا.<sup>1</sup>

وفي الفصل الثاني يقول أن الحيرة والتيه كانا المنطلق والخطوة الأولى نحو أداء هذه الوظيفة الإنسانية، فالإنسان الذي يجد نفسه حائرا تائها سيشعر أنه جاهل، لذلك يحاول التخلص منه عن طريق المعرفة، فالحكمة تبدأ عن طريق الحيرة والتيه حول مسألة الوجود، ويرى أرسطو أن مسألة الوجود حيرت الفلاسفة عبر تاريخ الفلسفة، فالبحث عن الحكمة غاية سامية تتجلى في بحثنا عن العلم الحق لذاته لا يراد به منفعة ولا أرباح شخصية ولهذا ننظر إلى العلم الحر باعتباره عملا إلهيا بمعنيين:

أولا: العلم الحر فوق قدرة الإنسان لأنه كائن مقيد، على حد تعبير سيمونيدس "الله (ثيوس) وحده هو الذي يستطيع التحلي بهذه الميزة"<sup>2</sup>

ثانيا: يتناول العلم الحر الأمور الإلهية (ثيوس) وموضوعه موضوع إلهي، لأن التصور هو أن الله موجود بين علل كل الأشياء، وهو الأصل الأول. وهذا العلم يخوض في هذه العلل والأصول الأولى، وبالتالي سيكون الله أيضا موضوع دراسة هذا العلم يعتقد أرسطو أنه بالرغم من أن هذا العلم جدير بالله أكثر من أي عالم آخر، وأن الله يملك هذا العلم إما بمفرده أو أكثر من كل من سواه، فخلافا لكلام سيمونيدس، وجريا مع المثل القائل إن الشعراء كثيرا ما يكذبون، ولأن الألوهية ليس حسودة "بخيلة"، لذا يستطيع الإنسان أيضا التوفر على هذا العلم.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> كتاب "ما بعد الطبيعة" لأرسطو، 1، 1، 980ب، 27-26.

<sup>2</sup> المرجع السابق: ألفا الكبيرة، 2، 982ب، 21

<sup>3</sup> المرجع السابق: ألفا الكبيرة، ص: 10.



ومنه وحسب أرسطو ف "ما بعد الطبيعة" أو "الميتافيزيقا" هي علم التبيينات الأولى أو النهائية، أي علم التبيينات التي لا تحتاج إلى تبين كل شيء من حيث هو موجود، يبحث في الأصول النهائية، حيث أنها تختص بدراسة الوجود بما هو موجود، سواء ما هو الوجود أو صفاته التي يتصف بها بما هو موجود<sup>1</sup>، والحقيقة أن الميتافيزيقا تدرس كل الجواهر من حيثية واحدة كلية. تتعلق بوجود الجواهر وليس أشياء معينة فحسب أرسطو الميتافيزيقا ممكنة، بصفتها علما واحدا هو علم الأصول الأولى للعلل والتبيينات الأولى والنهائية وفي الوقت ذاته علما بالوجود بما هو موجود.

د. المحطة الوسيطة: أوغسطين والميتافيزيقا اللاهوتية:

يعتبر أوغسطين من أبرز آباء الكنيسة في العقيدة المسيحية، تفكيرهم كان مقتصرًا حول الدفاع على العقيدة المسيحية ضد الفلاسفة اليونانيين وبخاصة الأفلاطونية المحدثة.<sup>2</sup> فانقسمت الآراء بين رافض للإرث اليوناني والروماني (التفكير الفلسفي) برمته باعتباره ارثا وثنيا يقر بتعدد الآلهة، وبين من يرى فيه خادما للعقيدة المسيحية في بعض جوانبها، وللقديس أوغسطين مكانة معتبرة في الفكر الفلسفي المسيحي، بل يعد حلقة وصل ربطت بين العهد الجديد وبين التراث الفلسفي اليوناني الأفلاطوني تحديداً، حيث دارت فلسفة أوغسطين حول تجربته الإيمانية من قبل المسيحية التي اتفقت مع طبيعته الفكرية، فرأى فيها الفلسفة الحقة، فالفلسفة والمسيحية تعبران عن حقيقة واحدة هي الحقيقة الإلهية التي هي السعادة، فالسعادة عند الاستمتاع بالحقيقة (...)<sup>3</sup>

<sup>1</sup> ايسيلين: 1، 1026 ألف، 31-32.

<sup>2</sup> سامي السهم: النصوص العقلية في اليهودية والمسيحية والاسلام، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، 2014، ص219.

<sup>3</sup> المرجع السابق: سامي السهم، ص227.

تميز التفكير في العصور الوسطى بأنه تفكير لاهوتي، حاول التوفيق بين العقل والنقل، لا تستغرب أن تجد مفكري العصر الوسيط يعنون أكثر ما يعنون بالتوفيق بين المسيحية والفلسفة،<sup>1</sup> فحسب وجهة نظرهم يجب إخضاع العقيدة المسيحية للعقل، فحمل القديس أغسطين شعارا هو: "إيمان باحث عن تعقل"، أي أراد عقلنة المسيحية لمعرفة الحقيقة الإلهية، فإيمان القديس أغسطين جاءت بعد مرحلة شك خاضها، وبعد اطلاعه على لعقيدة المسيحية، توصل إلى إثباتات عقلية لوجود الله وهذا ما دعم مسألة الميتافيزيقا الألوهية، متأثرا ببعض آراء أفلاطون، فيعد أوغسطين أول من حاول انطلاقا من إيمانه الراسخ بالعقيدة المسيحية القومية، أن يوضح طبيعة الدور الذي يمكن أن يلعبه العقل في حياة كل مؤمن يتأمل عقيدته تأملا فلسفيا.

فأراد أوغسطين تدعيم ما جاء به الكتاب المقدس بحجج عقلية، محاولا بذلك عقلنة النص المقدس، وتأويله تأويلا صحيحا، فإدراك وجود الله حسب أوغسطين يكون بالتسليم المسبق بوجوده أي الإيمان به عن طريق التعقل: العقل القادر بلا ريب على أن يثبت بمفرده وجود الله، إذ أن تلك الحقيقة قد عرفها الفلاسفة الوثنيون أي بمعزل عن كل وحي وعن كل إيمان.<sup>2</sup>

فالدليل على وجود الله عند القديس أوغسطين يكون بالنظر وتأمل الكوسموس، وما هو فيه من نظام وتناسق وانسجام يؤكد وجود منظم له وهو الله، وهذا الذي كان موجها للخاص والعام، أما الدليل الموجه للنخبة الخاصة فهو أن المتأمل في الوجود يرى أن هناك تدرج، فالجمال الموجود فيه يدركه الفيلسوف بأن هناك درجات له، إضافة إلى الخير فهناك تدرج له إلى أن نصل إلى الخير المطلق أو الأسمى وأن العالم المتغير نهايته ثابتة، فالذي يحدث التغير هو الثابت، فالموجودات ماهي إلا أثر الله فصورها، إن هي إلا أفكار إلهية، فكما يحضر الله في الموجودات من خلال أثره يستدل على وجوده من خلالها. إنه كل قاعدة وجمال وقياس ونظام وعدد ووزن

<sup>1</sup> عادل العوا: العمدة في فلسفة القيم، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1986، ص75.  
<sup>2</sup> علي عيزور: أوغسطينوس م ع مقدمات في العقيدة المسيحية والعقيدة الوسيطية، دار إقرأ، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص143.

وأصل كل إيلاد طبيعي<sup>1</sup>، أي أن العالم ليس صورة لله وإنما هو أثره ف: الله يوجد الأشياء على مثال معقولاتها والمعقولات هذه هي ذات الله فيشاهدها الله في ذاته، لا في عالم آخر هو أدنى منه، بمعنى أن عالم المثل الذي نادى به أفلاطون هو عند أوغسطين قائم في عقل الله، وليس في عالم قائم بذاته.<sup>2</sup>

ويكمن الفرق بين ميتافيزيقا أفلاطون وأوغسطين، حيث أن الأول أقر بوجود عالمين، عالم الحس وعالم المثل حيث أن هذا الأخير مستقل عن الله خارجا عنه، ولكن أوغسطين يرى أن هذه المثل أو الأصول الأولى حاضرة في الله متحدة معه، ولقد كانت المثل الأفلاطونية قائمة بذاتها في عالم مستقل عن الصانع، ولكنها الآن تتجمع في الله، وتصدر منذ الأزل من خصوبة الوجود الإلهي (...)<sup>3</sup>.

الله عند أوغسطين هو: المعلم الداخلي وشمس العقل (...). إن الله هو شمس معقولة (...)<sup>4</sup> وهو مبدأ إنتاج الأشياء جميعا ماعدا نفسه،<sup>5</sup> إذ العقل وحده لا يمكنه إدراك الحقيقة، فالسبيل إلى ذلك هو النور الإلهي باعتباره نورا روحانيا باطنيا، فالحقائق تأتي بالإيمان ثم التعقل، لأنها تفوق العقل (نؤمن ثم نتعقل).

<sup>1</sup> المرجع السابق : علي زيعور، ص143

<sup>2</sup> أوغسطين: مدينة الله، القديس أوغسطين، ت: الخور، أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، مج1، الكتب(10-1)، ط2، 2006، ص239.

<sup>3</sup> المرجع السابق : علي زيعور، ص150.

<sup>4</sup> المرجع السابق: علي زيعور، ص156.

<sup>5</sup> إينتيان جيلسون: روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ص212.

## الفصل الثاني:

### ديكارت والمنهج الجديد (أسس التفكير الديكارتي)

1. ديكارت: نشأته، حياته وأعماله (1596 - 1650)

2. الشك المنهجي عند ديكارت

3. خصائص الوجود عن ديكارت

4. العلاقة بين الفكر والوجود عند ديكارت.

إن مرحلة العصور الوسطى اتسمت بالركود الفكري وسيادة الفكر الديني، حيث سيطرت الكنيسة على العقول وفرضت سيطرتها على الفلسفة وقيدت الفكر البشري، لكن مع بداية عصر الحداثة إنبثق عصر جديد تآثر على عصر الظلمات، تحرري، عصر الإصلاح والاستتارة بنور العقل والرشاد، وبالتحديد مع رائد الفكر العقلاني الحديث وأب الفلسفة الحديثة ديكارت، الذي عمد إلى نوع من الحرية والاستقلالية الفكرية الثورية للتحرر من قيود الوسيطية التي فرضتها الكنيسة، فأسس للتجديد والتجاوز بابتكار منهج جديد قادر على تحرير العقل والوصول إلى الحقيقة والمعرفة الحققة. ومنه نصل إلى التساؤل على من يكون رنيه ديكارت؟ وما هي الأسس الفكرية التي أسس بها لفكره الجديد؟

## 1. ديكارت: نشأته، حياته وأعماله (1596 - 1650)

### أ. نشأته وحياته:

رينيه ديكارت هو أول فيلسوف محدث وواحد من أعظم الرياضيين في الأزمان قاطبة، ولد في لاهاي عند التخم الفاصل بين تورين وبواتو في 31 مارس سنة 1596، كان أبوه يواكيم ديكارت ينتمي إلى نبالة أهل القضاء، ولا نعرف عنه شيء سوى هذه المقولة التي تكفي بحد ذاتها للحكم عليه، فعندما علم بصدور المقال في المنهج هتف: "أأكون قد أنجبت أبنا سخيفا إلى حد يرضي معه بأن يجلد بجلد العجل؟" وقد أنجبت له زوجته -حنة بروشار- خمسة أولاد وماتت بالنفاس في عام 1597 وقد ربت ديكارت جدته لأمه ثم زوجة يوكايم الثانية آن موران. وأمضى اليتيم الصغير جل حياته في الريف، وكان الغلام هزيل البنية وقد ورث عن أمه كما سيقول لاحقا سعالا ولونا شاحبا جعل الأطباء كلهم يتوقعون له الموت في زهرة العمر. وفي عام 1604 في عيد الفصح أرسله والد إلى معهد لافليش الذي كان تأسس لتوه والذي لن يطول الزمن حتى يتحول إلى مدرسة مشهورة كان الأباء اليسوعيون هم الذين يتولون إدارته

وقد احتضنوا فيلسوف الغد بنظام حر، قووا بنيته وأشركوه في عدد من مضامير التسلية وكذلك في عدد من الاحتقالات ومنها احتقال على شرف غاليليو كان له في نفسه وقعا عظيم، وأخيرا لقنوه مبادئ الإيمان ومعها اللاتينية، التاريخ والبلاغة<sup>50</sup> وعلى أخص الفلسفة الأخلاقية والمنطقية ورياضيات كلافيوس وطبيعيات أرسطو، وميتافزيقا التوماوية.

وفي عام 1614 أفلت من قبضاهم وبعد ذلك بعامين حصل في بواتيه على البكالوريا وعلى إجازة الحقوق دفعة واحدة، وربما كان يفكر بالإنتساب إلى سلك القضاة لكنه اضطر إلى العدول عن ذلك إذ بعد فترة تطوع في الجيش البروتستاني لموريس دي ناسو حليف فرنسا وارتحل إلى هولندا وأرقام مع عساكر حامية بردا، في تلك الفترة تحديدا حدث اللقاء الشهير مع عالم الطبيعيات بكمان في عام 1618 واهتم وإياه بقانون سقوط الأجسام وكذلك بقانون ضغط الموائع وحل بعض مسائل الرياضيات، ثم بارح صديقه هولندا وسافر إلى ألمانيا واستقر به المقام في "أولم" مدينة الرياضيين وهناك وفيما هو حبيس موقده فقد اهتدى إلى كشف عظيم إلى أسس علم عجيب مالا يزال موضع بحث ونقاش إلى يومنا هذا، ربما كان يقصد مبادئ منهجه أو ذلك الجبر الهندسي ومهما يكن من أمر فقد راح يضرب عصا الترحال هنا وهناك، وفي نهاية المطاف حاول أن يعتزل الناس وفي أثناء ذلك سجلت حياته حدثين أو ثلاثة أحداث هامة، ففي عام 1626 اكتشف قانون الأجياب وأعطى حولا جديدة لمسائل تضعيف المكعب وإثلاث الزاوية وأجرى محادثات مع الأب "مرسين" عضو جمعية الأوراتور وكبير مترسلي العصر ومع "ميدورج" العالم بالبصرييات ومع موران العالم بالفلكيات ومع "بلزاك" الكاتب صاحب الأسلوب المونق، و"جيببو" ميتافزيق الحرية، و"سيلون" المبهن على خلود النفس، لكنه التقى على الأخص بالكاردينال "بيرول" مؤسس جمعية

<sup>50</sup> جورج طرابيشي : معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، 1987، ص:270.

الأوراتور في مجلس أدبي لمع فيه نجم ديكارت، لكنه فيما كانت حلقة عزلته تضيق وكانت دائرة أفكاره تتسع إلى ما لا نهاية تقريبا.<sup>51</sup>

وفي أبريل 1619 رحل إلى ألمانيا ليقوم في قرية صغيرة بجوار مدينة "أولم" ليعتزل هناك، كان يقضي فيها كل وقته منصرفا إلى التفكير العميق في منهج يقيني محدد، وفي يوم 10 نوفمبر 1619 اهتدى بعد طول تأمل وتفكير إلى اكتشاف ما يسمى بقواعد علم يستحق الإعجاب والراجح من خلال آراء الباحثين أنه اكتشف منهجا كليا للبحث في جميع العلوم وأفرد له كتابا تحت عنوان "مقال في المنهج" وفي عام 1620 غادر ألمانيا لينتقل إلى بلد آخر فسمع عن كذب آراء الملاحدة والشكاك مثل "ميشل مونتاني وشارون وغاسيندي" فلم تعجبه أفكاره كما اعتزل الناس والحياة الارستقراطية ولعل ما دفعه إلى ذلك خلافة مع بعض أفراد عائلته حول إرث يعود له وعزمه على إصلاح الفلسفة وإيجاد منهج جديد للبحث في كل العلوم.

ب. أعماله:

❖ العالم:

كان من أثر عزلة ديكارت في هولندا أن بدأ بكتابة أول مؤلفاته عام (1629-1633) وعزم على أن يبعث بمخطوطة إلى الأب مرسن لكي يبدي رأيه فيها، كان محكمة التفتيش في روما تدين غاليليو فكان أن فزع فزعا عظيما وامتنع عن نشره، وكان يرى أن ذلك ليس ممكنا إذا ما عارضت الكنيسة ذلك، والذي كان مضمونه أن ديكارت يسلم فيه بدوران الأرض ولا نهاية العالم.

❖ خطاب في المنهج:

سنة 1637 وهو كتاب صغير الحجم أبان فيه ديكارت القواعد التي ينبغي على العقل أن يتبعها في بحثه عن الحقيقة في مختلف العلوم.

<sup>51</sup> المرجع السابق: جورج طرابيشي، ص271-272.

❖ تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى:

عام 1641 وفيه يبرهن ديكارت على وجود الله وتميز الروح عن الجسد وخلود النفس وفي الأشياء المشكوك فيها.

❖ مبادئ الفلسفة:

عام 1644 وقد كتب باللاتينية ثم ترجم إلى الفرنسية، وتم نشره عام 1647 وفيه يعرض ديكارت لفلسفته عرضا شاملا سواء فيم يتعلق بأصول منهجه الفلسفي أو مذهبه أو موقفه من المسائل الفلسفية فضلا عن تبيان أوجه الاختلاف بين فلسفته والفلسفات القديمة.<sup>52</sup>

❖ رسالة في انفعالات النفس:

وقد تم نشرها عام 1649.

❖ البحث عن الحقيقة بواسطة النور الفطري:

وقد نشر بعد وفاته سنة 1701، مع الاشارة إلى أن الكثير من الفلاسفة والكتاب قد أشادوا بأسلوب ديكارت في كتبه المختلفة.<sup>53</sup>

وقد عكف ديكارت يحزر بين (1637-1634) ثلاث رسائل علمية: انكسار الضوء والهندسة والآثار العلوية، وهذه الرسائل الأخيرة تفسر علل كل ما هو عجيب على الأرض وبين السحب أي الأبخرة والرياح والمطر والثلج والجليد والعواصف والرعد والبرق... الخ<sup>54</sup>

وبهذا نستنتج أن ديكارت كان واسع الاطلاع وهذا ما دفعه إلى الكتابة في كل العلوم وقد قال فيه مارسيال غيرو: "كان صاحب مزاج شكس، فقد كان نفورا متعجرفا، لكن جوهر نفسه كان مقدودا من الشجاعة، ففي قرن قلق مضطرب ووسط أخطار أكثر واقعية مما قد نتصوره اليوم

<sup>52</sup> مهدي فضل: فلسفة ديكارت ومنهجه، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1983، ص:77-83

<sup>53</sup> المرجع السابق: مهدي فضل، ص:83، 85.

<sup>54</sup> المرجع السابق: جورج طرابيشي، ص:273

أفلح ديكارت في أن يقف موقف المعارضة من فلسفة وعلم طبيعي يرتكزان على مآثور جبلي وعلى سلطة يهاب جانبيها، وما تحداهم فحسب بل هزمهم أيضا، وأما الاختراعات المعجبة التي حققها فكانت أداة رياضية منقطعة النظير ومذهبا فلسفيا لا يدين إلا بدين الفكر الواضح وواقعة ميتافيزيقية -الكوجيتو- كانت هي الأولى وربما الوحيدة التي انتزعت إجماع المفكرين الأكثر تضادا.

## 2. الشك المنهجي عند ديكارت:

ديكارت الذي يطلق عليه اسم أبو الفلسفة الحديثة ذلك أنه أقام منهجا جديدا مغايرا لكل المناهج وأتى بفلسفة جديدة عكس الفلسفات السابقة سواء فلسفة أفلاطون وأرسطو أو الفلسفة المدرسية، وعلى إثر ذلك جاءت نظرتة للكثير من المسائل مختلفة عن غيره ومن بين المسائل الوجود والمنهج الذي أبدع فيه ألا وهو الشك المنهجي إذا استلهمها روح التأملات ونصها ونص المبادئ، أيضا فهمنا أن الفيلسوف لا يبحث عم موضوعات خارجة عن النفس بعيدة الموطن عنها، ولا عن مواد تصلح لبناء العلم وإنشائه، إنما هي مبادئ في النفس ذاتها، مبادئ أولى يقوم فيها اليقين النظري المطلق، اليقين العاصم من الأخطاء، ولهذا البحث عن مبادئ أولى اسم في لغة ديكارت في الشك، فالشك خطوة التأمل الفلسفي الأولى وخطوته الأساسية<sup>55</sup> وفي هذا الصدد يقول ديكارت: "لكن لما كنت إذ ذاك راغبا في التفرغ للبحث عن الحقيقة، رأيت أنه يجب علي أن أفعل ضد ذلك تماما، وأن أعتبر كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك باطلا على الإطلاق وذلك لأرى إن كان لا يبقى لدي بعد ذلك شيء خاص من الشك تماما وهكذا فإنني لما رأيت أن حواسها تخدعنا أحيانا، فرضت أن لا شيء هو في الواقع على الوجه الذي تصوره لنا الحواس وكذلك لما وجدت أن هناك رجالا يخطئون في استدلالاتهم حتى في أبسط مسائل الهندسة، ويأتون فيها بالمغالطات..."

<sup>55</sup> نجيب بلدي: ديكارت، دار المعارف بمصر، ط2، 1968، ص:87

عزمت على أن أظهار بأن جميع الأمور التي دخلت عقلي لم تكن أصدق من ضلالات أحلامي، ولكني سرعان ما لاحظت وأنا أحاول على هذا المنوال أن أعتقد بطلان كل شيء، أنه يلزمي ضرورة أنا صاحب هذا الاعتقاد أن أكون شيء من الأشياء ولما رأيت أن هذه الحقيقة أنا أفكر إذن أنا موجود، هي من الرسوخ بحيث لا تززعها فروض الريبين مهما يكن فيها من شطط حكمت بأنني أستطيع مطمئنا أن اتخذها مبدأ أول للفلسفة التي كنت أفتش عنها.<sup>56</sup>

ونستنتج من هذا أن ديكارت قد أفضى به سير المنهج إلى الشك في شهادة الحس وفي ذاكرته، وفي أفكاره العادية، وفي هذا العالم الخارجي وحتى في صحة الرياضيات يقول ديكارت: وبوسعنا أن نشك أيضا في جميع الأشياء التي بدت لنا من قبل يقينية جد، بل نشك في براهين الرياضة وفي مبادئها وإن تكن في ذاتها جلية جلاء كافيا.<sup>57</sup>

وهكذا نستشف أن نطاق الشك عند ديكارت يمتد إلى جميع الأشياء الحسية والعقلية، ولكن شكه لم يكن إلا وسيلة فهو يدعونا إلى إنكار ما تلقيناه من العلوم حتى يظهر لنا معيار اليقين، أي أننا لا نهدم إلا لمجرد الهدم وإنما من أجل البناء على أساس ثابت الأركان.

فهل هناك أساس ثابت يضمن لنا تشييد البناء؟ إن شيئا واحدا يبقى في معزل عن الشك في نظر ديكارت وهذا الشيء هو الفكر، ولهذا يقول ديكارت: أنا أفكر: هذه حقيقة لا ريب فيها، نعم إنني أستطيع أن أشك في المحسوسات، وأستطيع أن أكذب العقليات، أستطيع أن أشك في أنني أفكر ولكن هذا الشك المسيطر علي يقتضي بالضرورة أيضا أن أكون مفكرا قد أشك في كل شيء وأخلي ذهني من جميع الحقائق، فأشك في وجود الأرض وسكانها والسماء وكواكبها، وأتوقف عن كل حكم، ولكنه يبقى مع ذلك لدى شيء محقق وهذا الشيء هو أنني أفكر.<sup>58</sup>

<sup>56</sup> ربنية ديارت: مقالة الطريقة. ترجمة: جميل صليبا، موفم للنشر، 1991، القسم الرابع، ص: 43.

<sup>57</sup> رنية ديكارت: مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1993، الفقرة 5، ص: 55.

<sup>58</sup> المصدر السابق: ربنية ديكارت، مقالة الطريقة، ص: 38-39.

وبالتالي نستنتج أن ديكارت قد وضع نهاية لتفكير القدماء إزاء فكرة الوجود، فالوعي بالأنا وهي تفكر وعي بالوجود الأول المباشر، فتراجع بذلك الوجود عن الصدارة لأن التفكير أو المعرفة أولى بالنسبة للوجود ومن هذا كله يتضح أن أولية فكرة الوجود لم يعد لها موضع في فلسفة تبدأ بالذات العارضة أو بالمعرفة.

### 3. خصائص الوجود عن ديكارت:

مما يتركب هذا الوجود: يعتبر ديكارت من الفلاسفة القائلين بثنائية الوجود لا بوحدة الوجود التي دعا إليها بارمينيدس، ذلك أن ديكارت يقسمه إلى نوعين أو عنصرين أساسيين لكل منهما مميزاته وخصائصه التي تختلف عن مميزاته الآخر وخصائصه هذان العنصران هما: المادة والعقل (الجسم والروح) فالصفة المميزة للمادة أنها تتمتع في المكان، والامتداد والمكان كل منهما في الواقع ملازم للآخر، فلا يمكن أن يقع امتداد إلا في المكان، ولا يمكن أن يوجد مكا إلا لشيء ممتد، فالمكان والمادة مترادفان، ولهذا أمكن أن يقال أيضا أن أخص خصائص المادة هي الامتداد أو المكانية.<sup>59</sup>

قلنا أن الامتداد هو الخاصية الأولى للوجود المادي، وإذا كان الأمر كذلك فإن العالم يصبح غير محدود أو غير متناه من حيث الامتداد، فأينما تصورت حدودا للعالم، فهناك فضاء أو مادة وراء تلك الحدود وذلك إلى ما لا نهاية.

وإذا كانت المادة امتدادا فالعكس صحيح كذلك بمعنى أنه لا امتداد بغير مادة وبذلك فالكون كله ملاء وأينما وحد المكان فهناك مادة أي جسم والقول بخلاف ذلك يفترض وجود الخلاء.<sup>60</sup>

<sup>59</sup> محمد عبد الرحمن بيبصار: تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط3، 1980، ص:98-90.

<sup>60</sup> مهدي فضل الله: فلسفة ديكارت ومنهجه، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1983، ص:161.

وإذن فإن الفضاء ينقسم إلى ما نهاية من الجزئيات لأنه عبارة عن مادة والمادة تقبل القسمة إلى ما لا نهاية لها من الجزئيات، ولا وجود للجزئيات التي لا تتجزأ، والقول بخلاف ذلك، أي بوجود جزئيات لا تتجزأ معناه وجود الخلاء فيما بينها.

ونضيف قائلين إن الخاصية الثانية لهذا الوجود هي الحركة لأنه لا يمكن تصور فكرة الامتداد دون الحركة، إذن فإن الامتداد والحركة هما الموجودان حقا في العالم المادي، وهما معا يشكلان محور علم الطبيعة.

وبما أن العالم كله ملاء، فحركات الأجسام فيه كلها، أشبه ما تكون بالحلقات الدائرية المقفلة، لأن الجسم لكي يتمكن من التحرك والانتقال من مكان إلى آخر، لابد وأن يدفع الجسم الذي أمامه وهكذا... بحيث تنتهي الحركة إلى النقطة أو البداية التي انطلقت منها، وهذا معناه أن كمية الحركة في الكون ثابتة، وقد خلق الله المادة بهذه الحركة التي كميتها ثابتة.

أما العقل فإن صفته التي يتميز بها عن المادة هي الفكر والشعور بحيث يكون من المستحيل وجوده أو تصوره بدونهما.

يقول ديكارت: ... لما كان لي أي مسوغ للاعتقاد أنني موجود، فعرفت من ذلك إنني جوهر كل ماهية أو طبيعة لا تقوم إلا على الفكر.<sup>61</sup>

والمادة والعقل متباينان كل التباين، ولا يمكن أن تأخذ إحدهما صفة الأخرى، فلا يمكن أن تتصف الأجسام أي المادة بالفكر كما لا يمكن أن يتصف العقل بالامتداد والمكانية، ويترتب على هذا أن كل ما هو مادي متشابه الوجود متجانس في المادة وبعبارة أخرى، مكون من عنصر واحد بالذات، يشترك بين مختلف الأشياء المادية بحيث لا يختلف بعضها عن بعض إلا فيما هو عارض لهذا العنصر كأشكالها وأوضاعها وحركاتها وأحجامها، وكذلك كل ما هو عقلي أو روحي متشابه في عنصره، مشترك في طبيعته المعنية بالذات التي تختلف في وجود عنه في موجود

<sup>61</sup> المرجع السابق: رينية ديكارت، مقالة الطريقة، القسم الرابع، ص: 45

آخر كذلك إلا فيما هو عارض لهذا العنصر المشترك بينما كأعمالها الصادرة عن إدارة وروحية وكالأحكام والأفكار التي تطرأ لها وتتوارد عليها.

وتفسير ديكارت لكل من المادة والعقل إلى هذا النحو يجعل من المستحيل أن توجد المادة أو الجسم بدون امتداد، كما يكون من المستحيل أيضا أن يوجد عقل من غير تفكير.

وبالتالي فإن رأيه في كل من شقي الوجود (المادة والعقل) يكاد يرجع إلى رأي قديم للفيلسوف اليوناني أرسطو في الهولي والصورة أو المادة والعقل،

فكما بين أرسطو فلسفته على ثنائية الوجود المتردد بين عنصرين أساسيين هما الهولي والصورة أو المادة والعقل، بنى ديكارت تفسيره للكون على القول بعنصري المادة والعقل.<sup>62</sup>

#### 4. العلاقة بين الفكر والوجود عند ديكارت:

لقد وصل ديكارت إلى إثبات وجوده عن طريق إثباته لتفكيره وبالتالي إلى صياغة الكوجيتو واعتبرها نتيجة يقينية قطعية لا شك فيها، وبالتالي فإن قوله: أنا أفكر، هو في الواقع قول صحيح بالضرورة في كل مرة نتصوره، إلا أنه يبدو مقصورا على حضورنا لذاتنا طالما نحن نركز تفكيرنا على هذا الأمر الذي لا يقبل الشك، ولذلك صرح ديكارت قائلا: أما موجود هذا أمر ثابت، ولكن كم من الوقت؟ ما دمت أفكر، إذا انقطعت عن التفكير، انقطعت ربما عن الوجود انقطاعا خالصا.<sup>63</sup> نستنتج من هذا أن الفكر وحده لا يمكن أن ينفصل عن الأنية من غير أن تنقطع عن الوجود، ولذلك فالأنية شيء مفكر، إلا أن كانط يعتبر هذا الاستنتاج زائفا لأن الفيلسوف انتقل من الترابط بين المفاهيم الذهنية إلى إثبات وجود الجوهر أي الشيء المفكر الذي يعرف فقط بتتابع الظواهر الفكرية، وإنما هو ورائها وفي نظر ديكارت أن الأنا المفكر يثبت نفسه بصيغة المتكلم ويضع

<sup>62</sup> المرجع السابق: ص: 90-91.

<sup>63</sup> رينية ديكارت: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة: كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1982، ص: 73-74.

وجود أنية واقعية، هذه الآنية الموجودة هي طبيعة خاصة وليست صورة مجردة كالفكرة الكلية، ولئن سلم كانط بأن التفكير مرتبط بوحدة المعنى أنا أفكر فإنه يتساءل بأي منطق يسمح الفيلسوف لنفسه أن ينتقل من الصورة الفارغة إلى محتوى معين؟ معنى ذلك أن النظرة النقدية ترفض القضية الأساسية في فلسفة ديكارت وهي أن الفكر يصل إلى الوجود الفعلي انطلاقاً من وجودنا الخاص، وخلاصة القول لا يمكن أن نعتبر أنا أفكر صورة منفصلة عن محتواها الوجودي إلا على سبيل التجريد، وكل تمييز منطقي يدخل الغموض على ما هو واضح بذاته كالفكر واليقين والوجود فكل فكرة الحملة الانتخابية، أيا كان نوعها الخاص هي دليل وجود قاطع لأن يثبت الوجدان يثبت ذلك. فالفكر والوجود كلامها مبدأ لا معنى لأحدهما دون الآخر وبناء عليهما تتشكل الذات ويتحدد وجودها وماهيتها ولكن يبقى الوجود كمعنى عام إذ ليس له حد ولا رسم فلا جنس فوقه يمكن إدراجه تحته فهو من اللامعرفات التي تستعمل في تعريف غيرها دون أن يكون لها تعريف، إذن الوجود ليس صفة من الصفات التي تحمل على الموضوعات ولهذا اعتبرت نتيجة ديكارت قياس منطقي.

وفي نظر ديكارت صحيح أن الشك يثبت أنني أفكر ولكن هذا لا يثبتني أنا كجوهر مفكر أي فكر لهذا يجب أن نذكر أن ديكارت لم يعمل قياساً حينما قرر يقينه الأول بل كان عمله حدساً أو إدراكاً مباشراً لنفسه أو انيته كقائم بالتفكير، فإن مجرد نظرة في شكه نظراً باطنياً يريه الفكر قائماً في نفسه - لا للفكر ونفسه منفصلين - فهو يرى في تفكيره نفسه أو ذاته مفكرة، ضمن يدرك أنه يفكر إنما يرى وجوده وتفكيره شيئاً واحداً لا شيئين مرتبطين، فإن النور الطبيعي يريه هنا أن فكره هو نفس وجوده، كما أن وجوده إنما هو فكر، فلا ثغرة هنا بين التفكير والوجود، وهذا الإدراك واحد وبسيط، ولكن التعبير بالكلام يجزئه ويجعله يبدو كأنما هو استنباط، وبهذا يتبرأ ديكارت من تهمة القياس المشهورة، وبهذا يثبت أن الفكر جوهر حقيقة ويقينياً.<sup>64</sup>

<sup>64</sup> نظمي لوقا: الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت، المطبعة الفنية الحديثة، ص: 94.

ويقول ديكارت: فلاحظن أنه لا شيء في قلبي: أنا أفكر إذا أنا موجود، يضمن لي أنني أقول الحقيقة، إلا كوني أرى بكثير من الوضوح أن الوجود واجب للتفكير.<sup>65</sup>

ومن خلال هذا الترابط يتبين لنا ارتباط الوجود بالفكر في صورة حدسية لا تقبل الشك وهي قاعدة عامة لأن الأشياء التي نتصورها تصورا بالغ الوضوح والتميز كلها صحيحة وديكارت لم يهتم بتعريف الوجود وإن كان قد اهتم بتحديد الفكر بالإشارة إلى أحواله المختلفة

يقول ديكارت: أقصد بلفظ الفكر كل ما يختلج فينا بحيث ندركه بأنفسنا إدراكا مباشرا ومن أجل هذا لا يقتصر مجال الفكر على التعقل والادارة والتخيل بل يتناول الاحساس أيضا، لأنني حين أقول: أنا أرى وأمشي، وإذن فأنا موجود، وحين أقصد من الكلام على الرؤية أو المشي، عمل عيني أو ساقي، لا يكون استنتاجي استنتاجا يقسمنا ينتفي معه كل شك فقد أظن أين أرى أو أمشي دون أن أفتح عيني أو أبرح مكاني، كما يحدث لي أحيانا وأنا نائم، بل ربما يقع لي هذا الظن نفسه لو لم يكن لي جسم على الإطلاق.

ولكن حين أريد أن أتحدث فقط عم عمل فكري أو وجداني أي عن المعرفة التي أجدها في نفسي والتي تخيل لي أنني أرى وأمشي، تكون هذه النتيجة صحيحة لا أستطيع أن أشك فيها لأنها ترجع إلى النفس، التي لها وحدها ملكة الوعي أو التفكير على أي نحو آخر.<sup>66</sup>

ولقد أدرك ديكارت أن الوجود ليس صفة تضاف إلى موضوع بل هو أهم من أن يحمل على غيره لأنه قائم بذاته وما وجود الفكر إلا حجة دالة عليه، وبالتالي فعبارة أنا أفكر إذن أنا موجود والتي تشكل الحقيقة الأولى والبدء الفلسفي الأول هي قضية ليست مجرد ملاحظة لأمر واقع وإنما هي نوع خاص من الإدراك العقلي الذي يلحظ ترابطا ضروريا بين أمرين.

<sup>65</sup> المرجع السابق: رينيه ديكارت: مقالة الطريقة، القسم الرابع، ص: 45.

<sup>66</sup> المرجع السابق: رينيه ديكارت، مبادئ الفلسفة، ص: 57.

## الفصل الثالث:

### مسألة الميتافيزيقا عند ديكارت

1. مفهوم الميتافيزيقا عند ديكارت
2. مستويات الميتافيزيقا عند ديكارت
3. الميتافيزيقا والفكر عند ديكارت



لقد خصص ديكارت كتابا بأكمله حول الميتافيزيقا تحت عنوان "تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى" الذي أبدى فيه رأيه من الميتافيزيقا الأولى، فتبنى موقفا اقصائيا منها وأسس إلى ميتافيزيقا جديدة متجاوزا بذلك الميتافيزيقا القديمة، ومن هنا يحق لنا التساؤل: لماذا تبنى هذا الموقف من الميتافيزيقا؟ وما هو مفهوم الميتافيزيقا عنده؟ وما هي مستويات هذه الأخيرة عنده؟.

### 1. مفهوم الميتافيزيقا عند ديكارت:

أخذ ديكارت في كتابه "حديث الطريقة" موقفا سلبا من الميتافيزيقا، حيث نعتها بالعميقة، وهذا لأنها فلسفة نظرية، ودعا إلى نبذها وتجاوزها، وتعويضها بفلسفة عملية، ومع ذلك كان له كتابا كاملا حولها عنوانه "تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى" وعرف الفلسفة بكونها ميتافيزيقا بقوله: "الفلسفة بأسرها أشبه بشجرة جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزيقا والفروع التي تخرج من هذا الجذع هي كل العلوم الأخرى التي تنتهي إلى ثلاثة علوم رئيسية هي الطب والميكانيكا والأخلاق...<sup>67</sup> ومن هنا نرى أن ديكارت لا يريد إقصاء الميتافيزيقا وإنكارها بل أراد تجاوز الميتافيزيقا القديمة ليؤسس إلى ميتافيزيقا جديدة، وجعل مقولته الشهيرة "أنا أفكر إذا أنا موجود" هي أول مبدأ في النظرية الميتافيزيقية التي وضعها، فهي أساس لكل فكره الفلسفي.

انتقلت الميتافيزيقا عند ديكارت من دراسة الوجود إلى دراسة المعرفة، من الأنطولوجيا إلى الاستيمولوجيا، من الموضوع إلى الذات، أي تهتم بالذات التي تعرف وتقرر الوجود، فالميتافيزيقا عنده هي علم دقيق يمكن إثبات قضاياها بيقين يشبه اليقين الرياضي، ولهذا وضع مشروع أسماه "الرياضيات الشاملة" وجعل من الميتافيزيقا الجذر الراسخ في هذا البناء الرياضي الشامل، وتشمل جميع المعاني الواضحة التي نجدها فينا إلى جانب صفة الله، حيث بنى تفكيره على مبدأه الأول

<sup>67</sup> رنيه ديكارت: مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمين، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974، ص: 43.



وهو "أنا أفكر إذا أنا موجود" وجعل التفكير أساس للوجود فكانت القاعدة الأساسية التي بنى فلسفته، ومنها انتقل إلى فكرة الكائن الكامل اللامتناه التي أظهرت له نقصه المتناه، وبعدها توصل إلى اليقين الثالث (وجود العالم) انطلاقاً من وجوده ووجود الله، وبهذه الحقائق الثلاثة الكبرى يقوم بناؤه الميتافيزيقي وهي النفس والله والعالم، ولهذا في نتساءل. كيف أثبت ديكارت هذه الحقائق؟ وما الدلائل التي استعملها لإثبات وجودها؟

## 2. مستويات الميتافيزيقا عند ديكارت:

أ. إثبات وجود النفس:

إن اليقين الأول الذي استخرجه ديكارت من الكوجيتو هو وجود النفس فلا نستطيع ونحن على الشك في كل شيء، أن نشك في أننا موجودين.

يقول ديكارت: "لكن ما يدريني لعل هناك شيئاً آخر لا نستطيع الشك فيه وهو يختلف عن الأشياء التي حكمتهم منذ قليل أنها غير ثابتة، ألا يوجد إله ما أو قوة أخرى توحى إلى هذه الخواطر؟ ... إذن أأست أنا شيئاً على الأقل لكنني أنكرت فيما تقدم أن يكون لي حس ... أن يكون لي جسم، مع ذلك أنا متردد... هل بلغ ارتباطي بالجسم والحواس مبلغاً لم يعد بإمكانني أن أكون موجوداً إلا بالجسم والحواس؟

ما دمت أفكر أنني شيء من هنا ينبغي لي أن أخلص وقد رويت الفكر وأعنت النظر في جميع الأشياء إلى أن هذه القضية "أنا أفكر إذا أنا موجود" هي قضية صحيحة جبراً في كل مرة أنطق بها أو أتذكرهما.<sup>68</sup>

وهكذا نستخلص أن ديكارت وفي زحمة شكه يثبت ذاته المفكرة بوصفها جوهرًا مفكرًا وبالتالي تميزها واستقلالها عن البدن.

<sup>68</sup> رنيه ديكارت: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1982، ص: 70-71.



وفي هذا الصدد يقول ديكارت: ثم إنني أمعنت النظر بإنتابه في ما كنت عليه فرأيت أنني أستطيع أن أفرض أنه ليس لي أي جسم وأنه ليس هناك أي عالم ولا أي حيز أشغله ولكنني لا أستطيع من أجل ذلك أن أفرض أنني غير موجود، إن شكي حقيقة الأشياء الأخرى يلزم عنه بضد ذلك لزوماً بالغ البدهاة واليقين أن أكون موجوداً في حين أنني لو وقفت عن التفكير وكل سائر متخيلاتي حقاً، لما كان لي أي جوهر كل ماهيته أو طبيعته لا تقوم إلا على الفكر، ولا تحتاج في وجوده إلى أي مكان، ولا يتعلق بأي شيء مادي بمعنى أن الأنا أي النفس التي أنا بها ما أنا متميزة تمام التميز عن الجسم على الإطلاق، لظلت النفس موجودة بتمامها.<sup>69</sup>

وهكذا يصل ديكارت من خلال الكوجيكو أنا أفكر إذا أنا موجود، أن النفس شيء والجسم شيء آخر يؤلف جوهرًا مستقلاً عن الآخر فالنفس جوهر ماهيته فكر والجسم جوهر ماهيته امتداد وهذا ما يعرف بالثنائية الديكارتية.

#### ب. إثبات وجود الله:

بعد ما أثبت ديكارت وجود النفس انتقل إلى إثبات وجود الله ويستخدم ديكارت في ذلك منهاجاً مغايراً لكل مناهج الفلاسفة السابقين عليه، فقد كان الفكر الفلسفي قبل ديكارت يحاول إثبات وجود الله عن طريق وجود العالم الخارجي أولاً والاستناد عليه.<sup>70</sup>

والله عند ديكارت هو: "جوهر لا متاهياً أزلياً منزهاً عن التغير قائماً بذاته محيطاً بكل علم قادر على كل شيء، خلقتني أنا وخلق جميع الأشياء الموجودة عن صح أن هناك أشياء موجودة، هذه الصفات الحسنى بلغت من الجلال والشرف حداً جعلني أعتقد كلما أمعنت النظر فيها أن الفكرة التي لدي عنها لا يمكن أن أكون أنا وحدي مصدرها إذن يترتب علينا أن نستنتج من كل

<sup>69</sup> رنيه ديكارت: مقالة الطريقة، ترجمة جميل حاليبا، موزم النشر، 1991، ص: 44-45.  
<sup>70</sup> مهدي فضل الله: فلسفة ديكارت ومنهجه، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1983، ص: 130.



ما سبق أن الله موجود وإن كانت فكرة الجوهـر هي في وكنـت أنا جوهرًا فمـن اللاضـروري أن يكون لدي فكرة الجوهـر اللامتـاهي، أنا الوجود المتـاهي لو لم يضعها في جوهر لا متناه حقا. فنستخلص من هذا بأن الله هو المبدأ الأول والحقيقة التي لا تعلوها حقيقة، وهناك ثلاثة أدلة استخدمها ديكارت لإثبات وجود الله ويجدها كافية منها دليل الكمال.

يقول ديكارت: "ثم إنني بعد ذلك في شكوكي، فثبت لي منها أن وجودي ليس تام الكمال، لأنني كنت أعلم بوضوح أن المعرفة أكثر كمالا من الشك، فلاح لي أن أبحث من أين تأتي لي أن أفكر في شيء أكمل مني فعرفت بالبدهة أن ذلك يرجع إلى وجود طبيعة هي في الحقيقة أكمل.<sup>71</sup>

فهذا يدل على أن الإنسان ناقص، فلو كان كاملا لمنح لنفسه كل الكمال، أما الدليل الثاني فينطلق ديكارت من مقولة أساسية وهي أن فكرة الكمال فكرة فطرية واضحة تمام الوضوح وبالتالي فهي أولى بالوجود إذ لا تتناقض بين الكمال والوجود.

يقول ديكارت: "على الرغم من أنني لا أحيط علما باللامتاهي، أو رغم كون الله ينطوي على كثرة لا تحص من أمور أعجز عن أن أحيط بها، وقد لا يتيسر لي بلوغها بالفكر أبدا، فإن هذا لا يعني أنه غير حقيقي، إذن من طبيعة اللامتاهي أن تعجز طبيعتي المتناهية المحدودة التي لا تقدر أن تحيط بها، يكفي أن أظهن ذلك جيدا وأن أحكم بأن كل الأمور التي أظهنها بوضوح، والتي أعرف أن فيها شيئا من الكمال، وربما أيضا صفات أخرى أجهلها، هي في الله حقا وفعلا حتى تكون الفكرة التي لدي عنه أصح وأوضح وأميز من كل أفكار ذهني.<sup>72</sup>

<sup>71</sup> المرجع السابق: رينيه ديكارت، مقالة الطريقة، القسم الرابع، ص: 45.

<sup>72</sup> المرجع السابق: رينيه ديكارت، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ص: 120.



وبالتالي نستنتج أن ماهية الله تتضمن وجوده، كذلك اعتمد ديكارت على دليل الخلق المستمر في إثبات وجود الله فيبين فيه بأن وجود الانسان والعالم يحتاج إلى خلق مستمر لأن الانسان عاجز بحكم أنه كائن ناقص وبهذا لا يضمن الاستمرار لوجوده.

يقول ديكارت: "ومن الميسور أن نعلم أننا لا نملك قوة تكفل لنا الاستمرار في الوجود أو حفظه علينا لحظة واحدة وأن القادر على إبقائنا وحفظ وجودنا خارج ذاته لابد أن يكون قادر على حفظ بقاء ذاته وهو خالق أن يفترق إلى من يحفظه ويبقيه ذلكم هو الله.<sup>73</sup>

ومن خلال هذه الأدلة نستنتج أن وجود الله هو وجود ضروري بينما وجود الذات هو وجود ممكن.

### ج. إثبات وجود العالم:

في البداية تأكد ديكارت من أنه ذات مفكرة ثم تدرج وأثبت وجود الله من حيث أنه الكائن الكامل وأخيرا ينتقل إلى إثبات وجود العالم باعتباره الحقيقة المكملة للحقيقتين السابقتين، وقد اعتمد في ذلك على دليلين أحدهما دليل الميل الطبيعي ومعناه أننا نحس في نفوسنا ميلا طبيعيا للتسليم بوجود العالم الخارجي وبما أن الله يمتلك كل صفات الكمال ومن بينها صفة الصدق المطلق فمعنى ذلك أن ميلنا بالاعتقاد بوجود العالم الخارجي هو ميل صادق لأنه لو لم يكن العالم الخارجي موجودا لاستنتجنا أن الله مخادع يقول ديكارت: "إلا أن إرادة التضليل لا تصدر أبدا إلا عن خبث أو خوف أو ضعف ومن ثم لا يمكن نسبتها إلى الله".<sup>74</sup>

وبالتالي فنحن لا نشك على الإطلاق في حقيقة العالم الخارجي ونسلم بوجوده دون أدنى شك من خلال دليل الميل الطبيعي أو النفسي، يقول ديكارت: "ولما كان الله غير مخادع فمن البين جدا أنه لا يرسل إلي هذه الافكار مباشرة بنفسه ولا بواسطة مخلوق لا تكون حقيقتها منطوية

<sup>73</sup> رينيه ديكارت: مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1993، ص: 67.

<sup>74</sup> المصدر السابق: رينيه ديكارت، مبادئ الفلسفة، ص: 73.



فيه، بالفعل ولكن بدرجة الكمال فقط فهو لا ينحني ملكة لأعرف أن ذلك واجب بالعكس لقد جعل في ميلا شديدا جدا إلى الاعتقاد بأنها صادرة عن الأشياء الجسمانية لذا لا أرى كيف يمكن إبرائه من الخداع، إذا كانت هذه الأفكار صادرة بالواقع عن شيء آخر، أو كانت حادثة عن علل أخرى غير الأشياء الجسمانية، إذا نخلص إلى القول بأن الأشياء الجسمانية موجودة".<sup>75</sup>

والدليل الآخر هو دليل الإدراك وأساس هذا الدليل هو أن لدينا في أذهاننا أفكارا خارجة عن إرادتنا عن أشياء وموجودات مختلفة، ولما كان لكل معلول علة ولما كنا لسنا العلة في وجود هذه الأفكار في أذهاننا لأنها موجودة لدينا خارجا عن إرادتنا، فمعنى ذلك أن علة وجود هذه الأفكار في أذهاننا هي وجود هذه الأشياء والموجودات بالفعل في العالم الخارجي.<sup>76</sup>

يقول ديكارت: "ثم أنه كان في نفسي عدا ذلك صور لكثير من الأشياء الحسية والجسمية لأنني فرضت أنني كنت حالما وإن ما أراه وأتخيله كان باطلا فإنني لا أستطيع أن أنكر مع ذلك أن صور ما أراه وأتخيله موجودة في ذهني".<sup>77</sup>

أما إذا تساءلنا إذا كانت أفكارنا التي نمتلكها في ذهننا عن العالم الخارجي تعبر حقيقة عن ماهية العالم الخارجي بالتمام، فإن ديكارت يجيب على ذلك بأن معرفتنا الحسية بالعالم الخارجي، هي معرفة غير صحيحة، والمعرفة الصحيحة هي المعرفة المتأتية عن طريق العقل فقط، فنحن إذا نظرنا بعين العقل إلى العالم الخارجي فإننا نصل إلى حقيقة أولية واضحة متميزة ودائمة هي أن العالم الخارجي يتصف بصفة الإمتداد، هذه الصفة كناية عن فكرة نمتلكها في ذهننا وهي صحيحة وصادقة لأن مصدرها الله هي آتية منه، أما إذا تساءلنا عن ماهية الامتداد؟ فإن ديكارت يجيب بأن الامتداد معناه المادة القابلة للقسمة والتشكيل.<sup>78</sup>

<sup>75</sup> المصدر السابق: رينيه ديكارت، تأملات الميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، التأمل السادس، ص230

<sup>76</sup> المصدر السابق: مهدي فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه، ص:157-158.

<sup>77</sup> رينيه ديكارت: مقالة الطريقة، القسم الرابع، ص:47.

<sup>78</sup> المصدر السابق: مهدي فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه، ص: 158-159.



ونستنتج من خلال هذه المراتب وجود وترابط فيما بينها، فكل واحدة تكمل الأخرى هذا من جهة، ومن جهة أخرى يظهر في كل مرة أن الله ضامن صدق هذه الحقائق الثلاث، فلنتساءل إذن عن علاقة هذه المراتب الثلاث بعضها ببعض الآخر حسب رأي ديكارت؟ إن الله هو الجوهر الروحي، هو خالق الجوهرين الآخرين أي العقل والمادة من حيث أنه هو الذي حقق وجودهما، وكذلك من حيث أنه يستمر في حفظهما في الوجود فهما يستندان إليه بينما لا يفنقر هو إليهما.<sup>79</sup>

ويقول ديكارت في هذا الصدد: "إنه الموجود الذي لا يفنقر إلى غير ذاته لكي يوجد" "والله روح يختلف عن الأرواح الأخرى في أنه ذو طبيعة لا متناهية، وهو قائم في الوجود بذاته خلق المادة والأرواح المتناهية بحسب غاياته، أي أنه فعل الخلق تم اقتضاء لعله غائية، فالخلق غائي عند ديكارت ولكن هذه الغايات التي خلق الله الوجود من أجلها، يعجز العلماء والفلاسفة عن اكتشافها لأنها تفوق حدود العقل الإنساني، والله هو الموجود الحاصل على القدرة المطلقة وعلى صفات الكمال وغيرها من الصفات الأخرى، وقد أثبت ديكارت عن طريق الكوجيتو وجود هذه النفس أو هذا الجوهر الروحي ويبقى أن نوضح علاقة هذا الجوهر بجيم الإنسان وسائر موضوعات العالم الخارجي.<sup>80</sup>

ويرى ديكارت أن ما تتلقاه النفس إن هو إحساسات وأفكار غامضة تحدثها الموضوعات الخارجية على صورة تنبيهات، فالموضوعات الخارجية وكذلك سائر أعضاء الجسم تؤثر في أعضائنا وتنبهنا، فتترجم هذه التنبيهات أو هذه التأثيرات العصبية على صورة إحساسات وأفكار غامضة، وهذا تفسير الإدراك الحسي عند ديكارت، والنفس كذلك قد تحدث الحركة في الجسم عن طريق الإدراك وذلك مثلا حينما يعتزم أي فرد الانتقال من مكان لآخر أو تحريك أطرافه أو محاولة

<sup>79</sup> محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، الجزء الرابع، دار المعرفة الجامعية، سوينتر، الأزاريطة، 1996، ص: 67.

<sup>80</sup> المصدر السابق: محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي، الجزء الرابع، ص: 67.



الكلام أو الشخوص ببصره إلى موضوع ما، وقد تحصل الانفعالات في النفس نتيجة للاضطرابات التي تحدثها العمليات العضوية، فتكون هذه الانفعالات سببا في نشأة الفكر الغامض، وعلى العكس من ذلك نجد أن الفكر الجلي الواضح يصدر من الحدس العقلي في حرية واستقلال فأمامنا من ناحية مصدر الأفكار الغامضة ومن ناحية أخرى مصدر الأفكار الجلية الواضحة وهو الحدس، فهذا الرأي الذي يعرضه ديكارت يبين فيه تأثير الجسم في النفس وتأثير النفس في الجسم، يعبر عن التفاعل المتبادل أو التأثير المتبادل بين النفس والجسم، فالجسم يؤثر أحيانا في العقل، والعقل يرشد ويدبر أحيانا أخرى وعن طريق تدبيره للجسم يحدث تغييرات في الموضوعات الخارجية ويعد ديكارت من أوائل الفلاسفة المحدثين الذين رتبوا علاقة النفس بالجسم على هذه الصورة من التأثير المتبادل.<sup>81</sup>

ومن خلال دراسة خصائص المادة والعقل عند ديكارت نلاحظ اهتمامه الكبير الذي كان موجهها لهما، وأن العالم الطبيعي عند ديكارت تتحكم فيه قوانين آلية تتم عنها ظواهر تدرك بالملاحظة والوصف، لا يمكن أن نستبدل عليه من خلال معرفتنا لله بل إنما يتم ذلك عن طريق النظر العلمي وحده.<sup>82</sup>

### 3. الميتافيزيقا والفكر عند ديكارت:

استخلص ديكارت الحقيقة اليقينية الوحيدة التي لا شك فيها هي ممارسة الانسان للتفكير فالمزيد من التفكير يؤدي إلى المزيد من اليقين والطمأنينة، ومنه نتساءل حول ما هو الضمان لصواب أفكارنا وما هو اليقين الذي يشكل القاعدة التي يبني عليها الانسان المعرفة؟، أراد ديكارت بناء قاعدة صلبة للتوصل إلى المعرفة عن طريق إخضاعها للشك الممنهج، فوضع الله موضع الضامن لصحة الأسس اليقينية التي يبني عليها الانسان المعرفة، فهو الخالق الذي يرشدنا إلى

<sup>81</sup> المصدر السابق: ص: 68-69.

<sup>82</sup> المصدر السابق: ص: 69-70.



الحقيقة، فتوصل إلى أن الانسان يمتلك أفكار فطرية أولية (الحقائق الأبدية) أودعها الله فيه وانطلاقا منها يبني جميع المعارف والعلوم، وهنا يكمن البعد الميتافيزيقي لفلسفة ديكارت، حيث جعل البعد اللاهوتي الميتافيزيقي أساس لنمو جذور شجرة المعرفة، لأنه شبه الفلسفة بشجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها الفزيقا، والفروع التي تخرج من هذا الجذع هي كل العلوم الأخرى التي تنتهي إلى ثلاثة علوم رئيسية هي الطب والميكانيكا والأخلاق، وكان تأثير فلسفة ديكارت على مالبرانش كبيرا حيث اعتبر الأخير الله ليس الضامن للحقيقة بل هو أصل ومنبع الحقيقة وأن المعرفة مصدرها الله وما دور النفس إلا الاستعداد لتلقي المعرفة من مصدرها<sup>83</sup>، فحسب ديكارت هناك عالما قائما له حقيقة ساطعة كالشمس التي نورها ينير درب المعرفة عن طريق التفكير.

فشجرة المعرفة عند ديكارت بنيت على جذور راسخة التي تمثل الميتافيزيقا المبنية على اليقين لا الخرافة والأساطير، فالميتافيزيقا إذن تحتل حيزا وجوديا كبيرا في سلم الوجود، والعقل قوة من قوى النفس مفارقة للجسم، فالنفس مرتبة من مراتب العقل، فالمعرفة البشرية تبدأ بالمعرفة الحسية وتدرج صعودا إلى المعرفة العقلية الكلية المجردة، لكن هذا لا يعني أن كل المعارف مستمدة لزوما من المعرفة الحسية فقط، بل يمكن أن تكون النفس والفكر البشري مصدر لهذه المعارف التي تكون مبنية على معارف أولية أبدية أوجدها الله فيه.

فالعقل في عالم الميتافيزيقا يعمل وفق مقتضيات الواقع المفارق للحس باستخدام التصديقات الأولية وبالارتكاز عليها يستطيع تطوير معرفة بالعالم تدريجيا بطريقة القياس التي يستلزم صدق النتيجة صدق المقدمة الكبرى وكذبها كذب تلك المقدمة، ولهذا يجب الالتزام بتطبيق هذه المعارف الأولية، من هنا يمكن للعقل أن يصدر أحكاما موثوقة في الميتافيزيقا كما في الرياضيات على ضوء هذه

<sup>83</sup> مالبرانش والفلسفة الالهية: دكتوراة رواية عبد المنعم عباس، دار النهضة العربية، ص: 9-12.



المعارف الأولية، أما في العلوم الطبيعية فيتوقف الحصول على المعرفة الطبيعية بتطبيق المعارف الأولية على التجربة<sup>84</sup>، فالحقائق الميتافيزيقية مستقلة عن التجربة وتتحقق بشرط عمل العقل في فضاءها المعرفي وهذا هو السبب في أن نتائج الميتافيزيقا والرياضيات نتائج قطعية في الغالب دون النتائج العلمية في الطبيعيات فإن تطبيق الأسس الأولية في الطبيعيات لما كان محتاجا إلى التجربة تهيء شروط التطبيق، وكانت التجربة في الغالب ناقصة وقاصرة عن كشف جميع الشروط، فلا تكون النتيجة القائمة على أساسها قطعية.<sup>85</sup>

وبهذا يعارض ديكارت أرسطو في مقولته الانسان حيوان ناطق لأن الانسان حسبه لا يقوم بفكره وجسده بل يقوم بفكره فقط، فيقول "إذا انقطعت عن التفكير انقطعت ربما عن الوجود انقطاعا خالصا" وتعلم التفكير عن طريق الكوجيتو، الذي يقودنا إلى الاكتشاف ويمكننا من تجاوز الفكر القديم والمضي قبالا نحو التجديد، وتقبل إلا ما هو بديهي وواضح، فيجب على الانسان التدريب على المنهج التحليلي لإصلاح تفكيره والتقدم خطوة خطوة نحو اكتشاف الحقيقة.

إن مفهوم الأنا المفكر لم يكن موجود في القرن السابع عشر، بل كان مرفوضا من المؤسسة الكنسية التي تعتبر نفسها الوصي على البشر في الأرض وهي خليفة الله في أرضه، فقبل العصر الحديث كان المجتمع متكون من مترعون وقطيع، المترعون هم من يفكرون ويصدرون الأوامر، أما القطيع فيكتفي بالطاعة والانصياع التام لرجال الكنيسة، فكل من يحاول التفكير ومناقشة المترعون زج به في السجن أو يتهم بالكفر والسياق للمشقة، ففي العصر الحديث ومع ديكارت الذي دعى إلى أن العقل هو أعدل الأشياء قسمة من الناس، فأصبح العقل هو الذي يحدد التميز بين الناس.

<sup>84</sup> موقف من الميتافيزيقا: د. زكي نجيب محمود، دار الشروق، ص: 28، 34.

<sup>85</sup> السيد باقر الصدر: فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، ص: 142.



إذا انطلقت من تأكيد معرفتي أنني موجود، وأن شيئاً آخر لا يخص طبيعتي أو جوهرى سوى أنني شيء يفكر حراً، استطعت القول بأن جوهرى محصور في أنني شيء يفكر وأني جوهر كل ماهية أو طبيعته أن يفكر، ليس إلا وعلى الرغم من أنه قد يكون، بل يجب كما بينه، أن يكون لي جسم اتصلت به اتصالاً وثيقاً، فلدي فكرة واضحة متميزة عن نفسي، باعتبار أنني لست إلا شيئاً مفكراً لا شيئاً ممتداً، ولدي أيضاً فكرة متميزة عن الجسم، باعتبار أنه ليس شيئاً ممتداً لا شيئاً مفكراً، لذا ثبت عندي أن هذه الأنا أعني بنفسى التي بها أكون أنا ما أنا، تتميز عن جسمي تمييزاً تاماً حقيقياً هي قادرة على أن تكون أو أن توجد بدونه.<sup>86</sup>

فعبارة أنا أفكر إذا أنا موجود هي المبدأ الأول في النظرية الميتافيزيقية التي وضعها، حيث أن الميتافيزيقا تدرس العلة الرئيسية للطبيعة وهي الله، حيث نظريته الميتافيزيقية أفادت بأن العقل خلقه الله كما يتمتع باليقين القاطع بخصوص الأشياء المادية عندما يدركها رياضياً، والتفكير السليم المبني على الحقائق الإلهية الأولى بوصولنا إلى المعرفة اليقينية.

<sup>86</sup> المصدر السابق: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ص 116

# الخاتمة

## ❖ نتائج البحث:

قطع ديكارت الطريق أمام الميتافيزيقا الكلاسيكية الموروثة عن الفلسفة اليونانية والميراث المسيحي وتجاوزها وأسس ميتافيزيقا جديدة، تنطلق نت التفكير إلى الوجود فانتقل من الشك إلى اليقين فعن طريق التأمل الميتافيزيقي أثبت وجود الأنا من حيث هو جوهر مفكر، وبذلك جعل الكوجيتو شرط للوصول إلى المعرفة اليقينية، فعرف ديكارت الميتافيزيقا على أنها أساس كل البحوث والمعارف حيث هي العلم الذي يبحث في أسس المعرفة والأشياء بهدف الوصول إلى المبادئ الأولى والعلل القصوى.

تعرضت أوروبا في عصره إلى أزمة حضارة، فدعي ديكارت إلى الخروج من التقليد الأعمى إلى الانتقاد التام لرجال الكنيسة والفكر الكلاسيكي القديم، وإعلان ثورة على الفكر القديم والسعي وراء طلب العلم اليقيني، وتزامنا مع الثورة العلمية لكوبرنيك وغاليلي وكبلر في مجال علم الفلك والفيزياء تبدلت نظرة الانسان لنفسه ووجوده وعلاقته بالعالم المحيط به.

فمنهج الشك عند ديكارت جمع في الواقع بين البعد الرياضي التحليلي وبين البعد الميتافيزيقي التركيبي، ذلك أنه لكي ندرك اليقين في مجال الميتافيزيقا فإننا نخضع موضوع البحث لطرق شتى ونتأمل من زوايا متعددة، ومنهج الشك هذا كان يعبر عن الدقة والضبط اللذان يتميز بهما العقل الانساني عموما، فطريقته التحليلية الرياضية سمحت بطرح القضايا طرحا تسلسليا وترتيبيا وفق نمط يتلاءم وطبيعة المنهج الذي يتبعه، والكوجيتو "أنا أفكر، إذا أنا موجود" هو إعادة طرح جديد لطبيعة العلاقة بين الفكر والوجود.

سميت الميتافيزيقا عند ديكارت بالميتافيزيقا الذاتية، حيث أنه بعد صراع عسير خاضه مع الشك توصل إلى تساؤل هام هو ما الذات؟ لكن الشك الديكارتي لم يكن عشوائيا بل شكا منهجيا قاده إلى الشك في كل الآراء السابقة والمعتقدات السائدة التي تلقاها في مدرسة اللاهوت لا فلاش.


فالشك في الفكر الكلاسيكي والفكر المسيحي قاده إلى تأسيس الشك المذهبي، فالأنا الذي يشك هو الأنا المفكر والواعي، فالوعي بذلك محركه الشك، والأنا الفكر لا يفكر إلا بوعي بالوجود، كذات تعي ذاتها ووجودها.

وبعد تأسيسه للقاعدة الرئيسية "أنا أفكر، إذا أنا موجود" ربط الفكر بالوجود ربطاً متيناً للدلالة على أهمية الطرفين معاً، حيث لا معنى لأحدهما في غياب الآخر، فالذات هي جوهر تتحدد فيه كل عمليات الإدراك والاختيار لمصطلح الفكر، والشك حال من أحوال الفكر.

فأحدث ديكارت قطيعة معرفية مع التراث الأرسطي وذلك بمستويين، أولاً على المستوى المنهجي حيث نقد المنطق الأرسطي وإظهار مجال الحكم فيه ومن أن بنيته لم تعد تساير معطيات العصر الحديث الذي هو عصر الاكتشافات العلمية في شتى المجالات.

وثانياً على المستوى الفلسفي حيث نقد الفلسفة الأرسطية من خلال نقده للفلسفة اللاهوتية الوسطية وخاصة الفلسفة القديس توما الأكويني وذلك بتحرير قدرات العقل الإبداعية وجعله المبدأ الأول والأساس في هذا الوجود، فالعقل مستحوز على المعرفة في شكل أفكار فطرية وهو وسيلتي إلى إدراك حقيقة وجودي ومن هنا خلاص ديكارت إلى الكوجيتو الذي قلب الكثير من المفاهيم التي بنيت عليها الفلسفة.

فميتافزيقا الذاتية عند ديكارت، خاصيتها الجوهرية هي التفكير وإيماناً منه بوجود أفكار فطرية أودعها الله في الإنسان بصفة قبلية، وجود فكرة الكمال كفكرة فطرية تحيل إلى وجود الكامل وهو الله، موجود ضرورة باعتباره علة وجود هذا الإنسان كموجود ناقص، ما يؤكد أن معرفة الذات عند ديكارت تتزامن ومعرفة الله عن طريق الحدس العقلي فإن كان منطلقه من الأفكار القطرية التي تعد الضامن لوجود الله، يصبح بذلك الله هو الضامن لوجود هذه الأفكار الفطرية.



قائمة المصادر والمراجع  
والمعاجم المعتمدة



قائمة المصادر:

- أرسطو: الطبيعة، ج2، ترجمة: إسحاق بن حنين، تح: عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية، العامة للكتاب، ط2.
- أرسطو: الكتاب الرابع عشر، مقالة النو، ضمن كتاب إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الميتافيزيقا.
- أفلاطون : المحاورات الكاملة، ت، شوقي داوود تمراز، محاوره طيماوس، المجلد الخامس، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د ط، 1994.
- أفلاطون: محاوره كراتيليوس، ت وتق، عزمي طه السيد أحمد، منشورات وزارة الثقافة، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، 1995، ط1.
- رنيه ديكارت: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1982.
- رنيه ديكارت: مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمين، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974.
- رنيه ديكارت: مقالة الطريقة، ترجمة جميل حاليبا، موزم النشر، 1991.
- رنيه ديكارت: مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1992.

قائمة المراجع:

- ايسيلين: 1، 1026 ألف.
- أزفولدكوليه : المدخل إلى الفلسفة، ت: أبو العلا عفيفي، علم الكتب للترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2016.
- إمام عبد الفتاح إمام: مدخل إلى الميتافيزيقا، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2005.
- إمام عبد الفتاح إمام: مدخل إلى الميتافيزيقا، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،



- القاهرة، مصر، ط1، 2005.
- أوغسطين: مدينة الله، القديس أوغسطين، ت: الخور، أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، مج1، الكتب(1-10)، ط2، 2006.
  - إيتيان جسون: روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط.
  - جورج حنا: قصة الانسان، دار العلم، للملايين، بيروت، ط2، 1997.
  - حول هسيودوس راجع: ما بعد 1،4، 984 ألف.
  - ربنية ديكرت: مقالة الطريقة. ترجمة: جميل صليبا، موقع للنشر، 1991، القسم الرابع.
  - ربوح البشير: مقارنة تاريخية، بأفق مفاهيمي لمسألة الميتافيزيقا، العدد الرابع، جانفي 2017.
  - رنية ديكرت: مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1993، الفقرة5.
  - سامي السهم: النصوص العقلي في اليهودية والمسيحية والاسلام، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، 2014.
  - عادل العوا: العمدة في فلسفة القيم، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1986.
  - عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984.
  - علي عيزور: أوغسطينوس م ع مقدمات في العقيدة المسيحية والعقيدة الوسيطية، دار إقرأ، بيروت، لبنان، ط1، 1983.
  - فتحي تريكي: فلسفة التنوع، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2009.
  - فراس السواح : الأسطورة والمعنى دراسات في الميتولوجيا والديانات الشرقية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ط2.
  - فؤاد زكريا : جمهورية أفلاطون، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، د ط،



2004.

- كتاب "ما بعد الطبيعة" لأرسطو، 1، 1، 980ب.
- الكندي: رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة.
- لوك فيري : أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، ت، محمود بن جماعة، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، مصر، تونس، 2015.
- ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية (من طاليس (585 ق.م) إلى أفلاطون (270م) وبرقس (485م)، منشورات: دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1991.
- ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية، من طاليس (585 ق.م) إلى أفلاطون (270 ق.م) وبرقس (485م) منشورات: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1991.
- محمد الشيخ: بناء المفاهيم وإعادة بنائها - مفهوم الميتافيزيقا نموذجا - مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد2، أكتوبر، ديسمبر، 2012.
- محمد جديدي: الفلسفة الإغريقية، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار الغربية للعلوم، بيروت، ط1، 2009.
- محمد عبد الرحمن بيسار: تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة،
- محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، الجزء الرابع، دار المعرفة الجامعية، سويتز، الأزرية، 1996.
- مهدي فضل الله: فلسفة ديكارت ومنهجه، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1983.
- مهدي فضل الله: فلسفة ديكارت ومنهجه، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1983.
- مهدي فضل: فلسفة ديكارت ومنهجه، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1983.
- نجيب بلدي: ديكارت، دار المعارف بمصر، ط2، 1968.



- نظمي لوقا: الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت، المطبعة الفنية الحديثة.
- هانز جورج غادامير: بداية الفلسفة، ترجمة علي حاكم صالح، حسن ناظم، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط2، 2013.
- هانز جورج غادامير: بداية الفلسفة، ترجمة علي حاكم صالح، حسن ناظم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط2، 2013.
- Ivan gobry Le Vocabulaire de la philosophie de... collection dirigée par jeanpierre zarader , ellipses, paris, 200

#### قائمة المعاجم:

- ابراهيم مذكور: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، د ط.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، مكتبة المدرسة بيروت، لبنان، د ط، 1982.
- محمود يعقوبي: معجم الفلسفة، أهم المصطلحات وأشهر الأعلام، دار الميزان، الجزائر، ط2، 1998.



سبح محمد الله